

جميل سلطان

ركنور في الآداب

و عضو الجمع اللغوي للدراسات السامية في باريس

الموشح

إرث الاندلس الثمين

دراسة وشواهد

جميل سلطان

ركنور في الآداب

وعضو الجمع اللغوي للدراسات السامية في باريس

الموشح

إرث الاندلس الثمين

دراسة وشواهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عهدى بالموشح — وأدب الاندلس — قديم ، ولعله أقدم مما
يتخيل ، فلقد كان ذلك من عهد الصبا المبكر ، يوم كانت العين تفتح
على حنان الآوة ، فترى المثل الطيب الصالح ، والنغم العذب الطروب ؛
وتشهد الاكبار للفن الدقيق ، والاعتصام بالترفع العيوف ، وتقرأ النظم
الرائق الجديد ، في اطار من روائع الوحي القديم .
ثم كان من أمر التوجه الى الادب ، ان تألق نور الاندلس كأبهـر
ما يسحر ، فشغل أديبها من الزمن ما شغل ، واستنفد موشحها من
الجهـد ما استنفد ، حتى اذا وليت ادارة الاذاعة عام ١٩٥١ ، كان الموشح
مما أيد ونشط ، ولله بعد ، اوفر عندنا من كل اذاعة .
فان كان لتابع الموشح في الأدب والفن من عمر ، فهذه ثمرة عبقة ، ارفعها
الى من يعجزني الوفاء بحقه ، توجيهاً وتعليماً ، وارشاداً وتقويماً ؛ الى من
عرف رجال الفن من اطلاعه فوق مما عرفت ، وانفعوا بثروته الفنية
اكثر مما انتفعت :

الى والدي

محمد سليم سلطان

ارفع حماد من عمل باخلاص ، ودعاني برّ ، واستشرف الى خير .

ج

دمشق ١٩٧٢/٧/١٩ و ١٩٥٣/٤/٣

مواد الكتاب

- ٥ - فن التوشيح : طلائع التجديد في الشعر العربي . الموشح وحدوده الفنية ، الاقوال والآيات ١٣ . النام والأفرع ١٩ . الحرجة ٢٣ . استعارة الحرجة والآيات ٢٦ . الأساط والأغصان والتوشح ٣٠ . أصل الموشح وتطوره ٣٤ .
- ٣٧ - أوزان الموشح : الأوزان العروضية . الموشح الشعري ٣٨ . الأوزان الإيقاعية والجديدة ٣٩ .
- ٤٢ - خصائص الموشح الفنية : أغراض الموشح ، أسلوبه الفني مبني ومعمق .
- ٤٥ - تألق الموشح : نشأة الزجل . الشرق يأخذ عن الغرب ٤٧ . هل اضمر الموشح ٤٨ . تعلق الناس به ٥٠ .
- ٥٢ - السابقون الى التوشيح : محمد بن حمود ٥٣ ، مقدم بن معافى ، ابن عبد ربه ، ابن القزاز ٥٤ . الرمادي ، ابن ماء السماء ٥٥ . ابن سناء الملك ودار الطراز ٥٦ .
- ٩١ - عباقره التوشيح : ابن عبد ربه ٦٣ . الرمادي ٦٥ . ابن ماء السماء ٦٦ . ابن القزاز ٦٧ . الحصري ٦٨ . ابن بقي ٧٠ . الأعمى النبطي ٧٢ . ابن باجة ٧٤ . ابن زهر ٧٥ . ابن سناء الملك ٧٧ . ابن سهل ٧٨ . لسان الدين بن الخطيب ٧٩ . ابن زمرك ٨١ .
- ٨٣ - حول الموشحات : آراء علماء الشرق والمستشرقين : كرد علي فيلاسبا ٨٤ . شوقي ضيف ٨٧ . وآراء الهنداوي والحضي وابن بسام وديمونين واشباخ ٨٧-٩٠ . ٩١ - الخاتمة

فن التوشيح

طه نفع النجور

انطلقت عبقرية العرب الشاعرة في الأجواء الاندلسية انطلاقاً
لم تكن لتعرفه من قبل في رحاب الشرق ، حينما كان يشغلها ما هي
فيه من قيود الوزن ، والقافية ، ووحدة البيت ، وانسجام الفكر ،
وتوازن المعاني ، ودقة الأداء في الكلام ؛

وتهيأ لملك العبقرية في الأندلس من آفاق الغنى المستفيض
والنعمة الهائلة ، واللذة الوافرة ، والطرب المثير ، ما لم يكد
يعرفه المشرق على ذلك المقياس من الغزارة والانتساع .

فكان جديراً بتلك العبقرية أن تسجل صورة ذلك الزمن
الرافه ، وتلك البيئة الطروب ، وأن تستجيب للتطور الذي ألفه
الأدب العربي على الأيام .

وهكذا حاصت العبقرية الشاعرة في أجواء سمحة ، وطلعت
على الناس بأدب موشع ، حطم كثيراً من القيود في الشعر .

ولكن هذا التجديد لم يكن بدءاً في الفن، ولا مرتجلاً في
الاسلوب، فقد ظهر في شعراء العربية المشاركة أيام بني العباس
من كان ينزع إلى التجديد في الاسلوب، ويبحث عن الحرية في
النظم، رغم ما عرف به المشرق من أناة في التطور الادبي،
وحفاظ على الطريقة الموروثة في القصيد، فكان أولئك النازعون
الى التجديد طلائع الانطلاق؛ ولو تهيأ لهم ما تهيأ للاندلسيين
من بُعدٍ عن تيار المحافظة، وانغماسٍ في اللهو والهوى، وازدهار
في الغناء والطرب، مع الطبيعة الساحرة، والثروة الوفيرة، لو تهيأ
كل ذلك لأوصلتهم الخطأ إلى الموشح أو الى شيء يشبهه .

واذا عدت إلى تطور الأدب العربي وما رافقه من مظاهر فنية،
الفيت في طبيعة الأدب نزوعاً الى التجدد في الاسلوب والاعراض
فمن تلك المظاهر الفنية المتجددة ثورة طائفة من الشعراء
على المطالع الموروثة، من وقوف على الاطلال وبكاء للاحبة،
ونزوعهم إلى معالجة الموضوع رأساً، أو التهيد له بما يناسبه من حكمة
أو وصف أو غيره، مما عد خطوة في تجديد المطالع، كقول أبي نواس

لاتبكِ هنداً ولا تطربِ الى دعدِ واشرب على الورد من حمرأة كالوردِ

وقوله : (العقد ٣/٤)

طاج الشقي على رسم يسائه وعُجبت أسأل عن خسارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد لا در درك قل لي مَنْ بنو أسد؟
وَمَنْ تميمٌ وَمَنْ قيسٌ وَلَقَدْ هُما ليس الا عاريب عند الله من احد
لاجف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وقول ابي تمام :

السيف اصدق انباءً من الكذب في حده الحد بين الجد واللعب

وكان من مظاهر التجديد في الاسلوب تلك العناية الفائقة بأنواع المحسنات البديعية المختلفة ، لفظية ومعنوية ، وكثرة الاعتماد على الصور والاستعارات والكنائيات والتجسيم والتشخيص في اداء الافكار ، مما أشرنا اليه في كتابنا عن ابي تمام ،

وكان من مظاهر التجديد في الأغراض والاوزان ما نظم من الأقساميص والأمثال والحكم في مقطوعات او مزدوجات : كل شطرين منها على قافية واحدة ؛ فقد ورد ان ابان بن عبد الحميد اللاحي نظم كتاب كليلة ودمنة شعراً ، ونظم ابو العتاهية قصيدته ذات الامثال في اربعة آلاف مثل ، كما ذكر صاحب الاغانى ، وفيها يقول :

حسبك مما تبغيه القوتُ ما أكثرَ القوتَ لمن يموتُ
هي المقاديرُ فلمني أو فذرُ ان كنتُ أخطأتُ فما اخطأ القدرُ
ان الشباب والفراغ والجدمةُ مفسدة للمرء أيُّ مفسده
إن الشباب حجة النصابي روائح الجنة في الشباب

وخلد اديب الاندلس الكبير ابن عبد ربه غزوات الخليفة
عبد الرحمن الناصر ، وما أفاض على البلاد من أمن بعد حرب ،
في منظومة مزدوجة حاكي فيها طريقة أبي العتاهية في ذات
الأمثال ، فوصف الحياة الاجتماعية والحربية وما كان من أخلاق
الناصر الكريمة ، وهمته الرفيعة ، وسخائه الغمر ، وحروبه
المتواصلة ، واستيلائه على المدن ، وتدرج في ذكر كل ذلك بحسب
السنوات التي ولي فيها مقاليد الحكم في الاندلس ؛ وهي مزدوجة
طويلة تقع في أكثر من اربعمائة بيت فكان مما قال فيها :

(المتمدن ٣ / ٢٠٩ - ٢٢٧)

مؤيد حَكَمَ في عِدائِهِ سيفاً يسيل الموت من ظبائِهِ
قد اشرقت بنوره البلاد وانقطع التشغيب والفساد
هذا على حين طنى النفاق واستفحل النكاب والمراق
وضاقت الارض على سكانها واذكت الحرب لظى نيرانها

فما تله مقلة بنوم	تأخذنا الصبحة كل يوم
طبق بين الارض والسما	حق انا الفوث من ضياء
وجاب عنها دامسات الظلمة	هو الذي جمع شمل الامة
ونفّر السيّد والسودا	فجمع الاجناد والحشودا
فكان وقتنا ياله من وقت	حق تداعى القوم يوم السبت
وقد علا التكبير والصياح	فاشرعت بينهم الرماح
وفغرت افواهها الختوف	وفارقت أغمارها السيوف
	وختمها بقوله :

وقد شفى الشجي من اشجانه	ثم نى الامام عن عنانه
وطهر البلاد من ارجاسها	وامنّ القفار من ايجاسها

وكان من منازع الشعراء الى التجديد تلك المسمّطات التي
تتضمن أحياناً ثلاثة اشطر على قافية واحدة ويكون الشطر الرابع
هو المتبّع في السِمِط الى منتهاه ، مثل قول بعض المحدثين .

وشية كالقَسَم	غير سود اللِسم
داويتها بالكم	زوراً وبهتانا

وقالوا في تعريف المسمّط من الشعر : إنه ابيات مشطورية
تجمعها قافية واحدة ؛ وقيل هو ما قُفّي ارباع بيوته وسَمِط في
قافية مخالفة ، كما رأيت في المثال المتقدم ؛ وقال الليث : الشعر المسمط :

الذي يكون في صدر البيت ابيات مشطورة او منهوكة مقفاة
ويجمعها قافية مخالفة لازمة للقصيدة حتى تنقضي ، قال : وقال
امرؤ القيس في قصيدتين سمطيتين على هذا المثال ، يسميان
السمطين ، وصدر كل قصيدة مصراعان في بيت ، ثم سائر ذو سموط
فقال في احدهما :

ومستلّم كشتت بالريح ذيلَه ائت بمضرب ذي سفاق مبدَه
فجعتُ به في ملتقى الخيل خيلَه تركت عناق الطير تحجل حوالَه
كأن على سرباله نضع جريال

واورد ان برّى مسمّط امرىء القيس :

توهمت من هند معالم الطلال عفا هن طول الدهر في الزمن الخالي
* * *
مرايع من هند خلّت ومصايفُ يصبح بغناها صدى وعوازفُ
وغيرها هوج الرياح العواصفُ وكل مسفر ثم آخر رادفُ
بأسحج من نوء السماكين هطال

واورد ان برّى لا آخر :

خيال هاج لي شجنا فبتُ مكابداً حزننا
صمد القلب مرتهناً بذكر اللهو والطرب

سبني ظبيةً عطلُ كأن رضاها عسلُ
 ينوءُ بخصرها كفلُ بنيل روادف الحَقَبِ
 يحول وشاحها قلقاً * * * إذا ما ألبست شققا
 رفاق العصب أو سرقا * * * من الموشية القشِبِ
 يمج المسك مفرقها * * * ويصي العقل منطقها
 ونمسي ما يؤرقها * * * سقام العاشق الوَصِبِ^(١)

وليس الدوبيت (البيتان) غير مظهر آخر من مظاهر

الانطلاق وذلك مثل قول ابن الفارض :

اهوى قرأ له المعاني رقً من صبح جبينه اضاء الشرق
 تدري بالله ما يقول البرق ما بين ناياه ويبقى فرق

وقول الآخر :

ان جئت ربا الحمى ولاحت نجدُ فاذا كره ولهي وما جناه البعدُ
 قد كنت اقا سي البعد حتى رحلوا يا ليتهم طادوا وطاد الصدُ

فهذه وغيرها مما بسطنا عنه الكلام في « فنون الشعر »

محاولات للافلات من القيود القديمة ؛ واذا كان بعض
 الفحول من الشعراء لا يرون في هذه المظاهر دليلاً على قوة

(١) انظر لسان العرب ٩ / ١٩٦ ، وكتابنا عن فنون الشعر

الشاعرية ، والتمكن من القريض ، فتمد كان فريق آخر يرى ان التطور الفني يقتضي تجنب الشعر بعض قيوده القديمة التي يزرع تحت أثقالها ، وأنه لا بد من تطور فيه الدليل على الحياة ، لأن كل شيء لا يتطور فأنما مرده الى الهلاك ؛ وها هي ذي الحياة العباسية نفسها قد أخذت بالتطور والانطلاق في كثير من المفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والمعاشية ، وإذا كان الشعر ، وهو صنو النثر ، وأحد فرعي الأدب ، اذا كان مرآة تعكس مشاهد الحضارة الجديدة ، فما أجدره بأن يسارق الزمن ، ويسير الركب ، فيتأثر بتألق الحياة الجديدة ومنازعها في الحرية والمذاهب المختلفة .

ولكن الحياة في الشرق العربي تصطدم دائماً بالآثر الموروث الذي ينظر إليه أبناؤه كأنه عنصر من عناصر البقاء والخلود ، أضف الى ذلك ان البادية الرابضة على أبواب الحضارة الجديدة هي مهد العربية ، ومعقلها الحصين ، يرتادها الفصحاء ، ويحج اليها العلماء ، وتهب منها نفحات البداوة العربية الخالصة ، فتثير في

قلوب المشاركة رميس الحنين اليها ، وتأثر فيهم نار الحفاظ على لغتها وطريقتها ، ولذلك كان من العمر والشدة أن يشق الشعر طريقه المتجددة في مثل هذه الرحاب ، ولكنه حينما غرّب وحط رحاله في الاندلس بعيداً عن تلك النوازع المحافظة ، قريباً من المؤثرات الاعجمية المختلفة ، كالعادات واللغة ، أخذ يرقل في مطارف التتميق والتهذيب ، ويحلق في آفاق جديدة ملهمة ، فكان ما رآه في الدنيا الجديدة مدعاة الى التحلل من كثير من القيود ، وإذا به يخرج على الناس في حلة جديدة من خالص نسج الاندلس هي حلة التوشيح التي لم يعرفها المشرق قبل المغرب ، وقد اعان على تكوينها نهضة جبارة في الغناء والالخان ، تهيأت للاندلس بفضل طبيعتها الجميلة ، وترفها المفرق ، ورحيل كبار المغنين والمغنيات اليها امثال زرياب والجواري فضل وعلم وقلم وقمر والمجفاه ؛

الموسم ومردود الفبة .

فنظم المغنون والشعراء الاندلسيون والمغاربة تلك الموسحات وجعلوها « اسماطاً اسماطاً ، واغصاناً اغصاناً ، كما يقول ابن خلدون ،

واكثرها منها ومن اعاريضها المختلفة ، وسموا المتعدد منها بيتاً واحداً ، والتزموا عند قوافي تلك الاغصان واوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الاغراض والمذاهب (القدمة ص ١٤١) وسموا هذا النوع الجديد باسم الموشح نحو :

جزء

(قفل) : أَدِرْ لَنَا كَوَابِ . يُنْسِي بِهَا الْوَجْدَ . وَاسْتَحْضِرِ الْجَلَّاسَ . كَمَا اقْتَضَى الْوَدَّ

* * *

جزء

دِينٌ بِالصَّبَا	شُرْعَا	مَا عَشْتَ يَا صَاحِرْ
وَنَزَمَ	السَّمَا	عَنْ مَنْطِقِ اللَّاحِ
فَالْحَكَمَ	أَنْ تَسْمَى	عَلَيْكَ بِالرَّاحِ

* * *

(قفل) : اِنَامِلُ الْعَنَابِ . وَنُقْمُكَ الْوَرْدِ . حَفَّ بِصَدْغِي آسَ . يَلُوبِهَا الْحَدَّ

* * *

لِلَّهِ	أَيَّامُ	دَارَتْ بِهَا الْحُمُرُ
وَالرُّوْضِ	بِسَامِ	بَاكِرِهِ
وَصَلَّ	وَالْمَسَامُ	وَأَوْجُهُ زُهْرُ

فنعن بالاصحاب . قد ضمنا عقد . ويا ابا العباس . لا خانك الجد

خليفة	منكا	فينا ابو بكر
ناب لنا عنكا		في النهي والامر
لا تقى ضنكا		من نوب الدهر

وانتم ارباب . ما شيد المجد . وان بلونا الناس . فهم لكم ضد

حليت (لنا) الدنيا	من بعد تعطيل
وجاءنا بحى	بين البهاليل
اغر بالعليا	من فوق تحجيل

يختال في اثواب طرزها الحمد . وافرط الايناس فما له حد

بيننا انا شارب	للقهوة الصرف
وبين آنا تايب	لكن على حرف ^(١)
اذ قال لي صاحب	من حلبة الظرف

نديمنا قد تاب . غن له واشد . واعرض عليه الكاس . عساه يرتد

(دار الطراز ٤٧-٤٨)

(١) أي توبة غير ثابتة ولا متينة واقرب الى الارتداد ، واحسب

في الكلام اشارة الى آية من القرآن الكريم : « ومن الناس من يعبد

الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب

على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . (الحج ١١)

فالشطر الأربعة الأولى التي بدأ بها الموشح تسمى (قفلاً) وقد تألف القفل هنا كما ترى من أربعة (أجزاء) انتهى كل (جزء) بروي خاص (أكواب . الوجد . الجلاس . الود) واذن فالموشح هنا مبدوء بقفل مؤلف من أربعة أجزاء ، وإذا عدت تنظر في الموشح رأيت بعيداً عنه قفلاً آخر وهو (انامل العناب . ونقلك الورد . حف بصدغي آس . يلويها الحد) وقد التزم في هذا القفل ما التزم في القفل الأول من الروي ، ومن عدد الأجزاء ، ومن الوزن .

وهكذا تجد القفل الثالث :

(فحن بالاصحاب . قد ضمنا عقد . ويا ابا العباس . لا خانك الجد) فقد التزم فيه ما التزم في الأول من الروي ، وعدد الأجزاء ، والوزن ؛ واذن فالقفل يبقِي المثال الذي يجب أن يعتمد عليه في الموشح بالمحافظة على عدد أجزائه ووزنه .

وإذا نظرت بين القفل الأول والقفل الثاني وجدت ستة اشطر يسمى مجموعها (بيتاً) ولكنه في الواقع ، وبالنسبة لما تعرفه من علم العروض ، مؤلف من عدة أبيات وإنما

المصطلح عليه في الموشحات ، ان نسمي ما بين القفلين (بيتاً)
ولو كان مؤلفاً من عدة اشطر .

فاذا نظرت في البيت وجدته مؤلفاً من ثلاثة اجزاء :

الجزء الاول منه هو : دن بالصبا شرعا ما عشت يا صاح

والجزء الثاني منه هو : ونزه السما عن منطق اللاحى

والجزء الثالث منه هو : فالحكم ان تسمى عليك بالراح

فاذا اخذت الجزء الاول منه وجدت له نوعين من الروي :

في الفقرة الاولى (شرعا) وفي الفقرة الثانية (صاح) وقد

التزمها الوشاح ، فهذه اذن أصول البيت : وهي ان يتألف من

اجزاء وفقرات ويكون عدد مايجيء به الوشاح ووزنه ملتزماً في

بقية الابيات ، اما الروي فلولوشاح الخيار والحرية في التزامه

وعدمه ، والافضل ان يكون الروي مختلفاً في الابيات ، وها هو ذا

الوشاح يقول في البيت الثاني (بين القفلين الثاني والثالث)

لله	ايام	دارت بها الحمر
والروض	بسام	باكره القطر
وصلت	والمام	واوجه زهر

فانت ترى انه لم يلتزم الروي الذي التزمه في البيت الاول ولكنه التزم الوزن وعدد الاجزاء .

ونستنتج بمقتضى ان روي أعاريض الاقفال وضروبها وعدد اجزائها واوزانها واجبة الالتزام في الموشح ، وهي الاصل الملزم والاساس الذي يحتفظ به ، بينما لا يلتزم في الايات غير عدد الاجزاء (بما فيها الفقرات) والاوزان ، واذا ذكرت ان القفل في الموشح المتقدم مؤلف من اربعة اجزاء ، فاذا ذكر الى جانب ذلك ان القفل في صنعة الموشحات لا يكون اقل من جزأين كقول بعضهم :

شمس قارنت بدرأ راح ونديم

والموشاح ان يبني قفله على اجزاء متعددة قد تبلغ الثمانية ، وربما بلغت الاجزاء التسعة او العشرة ، ولكن ذلك قليل نادر ، وعلى كل حال فاذا كان القفل الاول مؤلفاً من عددٍ من الاجزاء معين وجب ان تكون اقفال الموشح كلها مؤلفة من العدد نفسه ، ويندر في بعض الموشحات الشاذة التي لا يعمل عليها ان تكون أقفالها مختلفة اعداد الاجزاء ، كأن يأتي القفل الاول مؤلفاً من جزأين وبقية الاقفال من ثلاثة .

وجرت العادة ان يبدأ الموشح بقفل ثم ينتهي بقفل وأن
يتردد القفل في الموشح ست مرات وعندئذ يسمى الموشح
(تاماً) فاذا لم يبدأ الموشح بالقفل وإنما ابتدأ بالبيت سمي
الموشح (افرع) وعلى هذا فالقفل اذن يتردد خمس مرات في
الموشح الا فرع وست مرات في الموشح التام .

فلننظر في موشح أفرع (لابن سناء الملك ٩٦) مبدوء

بالبيت ، ولنكتف بقسم منه :

دانت لي الدنيا	وواصل الوصال
من هو لي محبا	وصار لي خلا
لا أسمم النهدا	فيه ولا العذلا
ما اعطر اللقيا	له وما احلى

تملك الحلس . من النفـس . او اللبس . لقد كمل . بدر طـرق
مثل الفلق . تحت الغسق . حتى سرق . الباب . اهل الصواب

ما صال حق صا	بطرفه الوسنان
وصير الآساد	فرايس الغزلان
واخلف الميعاد	واخجل السلوان
جبينه الوقاد	إن شيت والفتان

فيه قبس . تحت الغلس . وقد حرس . ورد الحجل . نبل رشق
حتى ابق . قلبي فرق . فلملحدق . نشاب . بها نصاب

هذا الموشح كما ترى (اقرع) لانه مبدوء بالبيت لا بالقفل ،
وكل قفل فيه مؤلف من عشرة اجزاء ملتزمة الروي والوزن
مع التزام العدد .

اما ابياته فرددت في أصل الموشح خمس مرات ، وكل بيت
منها مؤلف من اربعة اجزاء ، وكل جزء مؤلف من شطرين
او فقرتين .

والفقرة في الاصل اما أن تتألف من القافية او الروي في كلمة
واحدة واما ان تضم اليها بعض الكلام القليل المنظوم قبلها ، فمن
ذلك قول ابن سناء الملك (١٠٥) في البيت المؤلف من ثلاث
فقر وثلاثة اجزاء (والبيتان بين ثلاثة أقفال) :

(قفل) صلي . ياجنة الحلد . يا فتنة الناس . يادعوة المظلوم
حسبك . قد اشتفيت مني . ولا اقول حسبي
قربك . يا غاية النغي . ومنية المحب
قلبك . ضن ولم يعدني . ولا رنى لقلبي
عدي . قمت بالوعد . لان وسواسي . يقول بالمعدوم
عقلي . سببته بناظر . يحبي كما يميمت
شلي . شنه بعاطر . من ثمرك الشيت
قل لي . ان كنت غير ذا كر . عهدي وقد نسيت

إني . . . باقى على العهد . لكنني ناسر . لسرنا المكتوم
واعلم بمد هذا ان البيت يؤلف على الاغلب من ثلاثة
اجزاء ، ويمكن أن يؤلف من جزأين ، ويندر أن يكون من
ثلاثة أجزاء ونصف ؛ وقد رأيت ان الأجزاء التي تؤلف البيت
تتألف من فقرات ، فقد يكون جزء البيت مركبا من فقرتين
او ثلاث او اربع فقرات ، وقد يكون الجزء مفردا غير مؤلف
من الفقرات .

وهاك موشعا أقرع ، بداء الوشاح ببيت مؤلف من ثلاثة
أجزاء وكل جزء فيه اربع فقرات ، ومن النظر في الفقرات
الآتية يتبين لك ان الفقرة تكون القافية وحدها حيناً ، ونضم
اليها بعض الكلام المنظوم المرزون حيناً آخر ؛ يقول الوشاح :

(هو عبادة الفزاز كما ذكر ابن خلدون في المقدمة ٤٤٢ ، ويصحح ابن بسام
النسبة الى محمد بن عبادة المعروف بابن الفزاز كما في الذخيرة ٢٩٩/٢ ولا يفسبه
ان سناء الملك لاحد . شأنه في الموشحات التي نقلها عن غيره في كتابه دار الفزاز
ص ٦٥) .

بالي . ظبي . حمى . تكلفه . اسد . غيل (جزء فيه ٤ فقرات)
مذهبي . رشف . كلى . قرقة . سلسبيل
يستبي . قلبي . بما . يعطنه . اذ يعيل

قفل } ذو اعتدال . يعزى الى . ذي نعمة ثابت
 في ظلال . تحت حلى . قطر الندى باث

ذو فتور . ذو غنج . ذو مرشف . العسر
 العبير . في ارج . والحسن في . ملبس
 كم يشير . وجد شج . بالدنف . مكس
 ذو اعتدال . لو عللا . انطق عن ساكت
 وغزال . لو مقللا . ألحظ عن باهت

واعلم بعد هذا أن البيت اذا كان يتألف من فقرات ، فان
 القفل لا يتركب منها أبداً ، وانما يتركب من اجزاء ، والجزء
 من القفل لا يكون إلا مفرداً ، بمعنى انه وحدة مستقلة ؛
 واذن فالوقوفات تنقسم تألف الاجزاء فقط ، واما الوقفيات
 فتقسم تألف الاجزاء المؤلفة من فقرات متعددة او مفردة غير
 مركبة ، والالتزام يقع في الوقفات على الوزن والقوافي وعدد
 الاجزاء ، ويقع في الوقفيات على الوزن وعدد الاجزاء ، ويحسن
 التنويع في القوافي .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان بعض الوشاحين الماهرين
 كانوا يخالفون القاعدة الاصلية حيناً في وجوب التزام الوزن

الواحد ، في الاقفال والبيوت ، ولا يقدم على هذا إلا البارع
في صناعة الموشحات ، العارف بايقاع الألحان ، فمن ذلك
قول ابن مناة الملك :

غزال قر من جنات عدن	وابدى بدر تمّ فوق غصن
وولتى آخذاً للمقل مني	فقل للبدر بدر الأفق عني
(قفل) ان بدري غائب	فكن لطرفي نائب
شقيت به وقيل لي السعيد	واغواني ووالدي الرشيد
امير من معاليه الجنود	وقاض من شبائله الشهود
وكريم كاتب	لقد علا اهل المراتب

على ان هذا الخروج عن التزام وحدة لوزن في الاقفال
والأبيات قليل نادر .

وبعد فاذا نظرت إلى أي موشح كامل وجدته ينتهي
(بقفل) ، وهذا القفل الأخير من الموشح يسمى (فرجه) .
ويشترط الأولون ان تكون هذه الخرجة حلوة عذبة ،
تخلب الألباب وتمز النفوس ، ينتقل اليها الشاعر عن طريق
(قال) او (قلت) او (غنى) او (غنيت) على لسان
الطير او الحب او السكران او غير ذلك .

فمن ذلك قول عبادة القزاز على لسان الحمام في موشح مدح فيه المعتصم والمتضد الانداسيين وانتهى فيه إلى قوله :

حازا حِكْمُ .	اعيتُ خُذُ .	لفهمان
الى همم .	جازت امد .	كيون
كل الأنام	بذاك يعتد	
ففي الكرام	كلاهما فرد	
ان الحمام	في ايديها تشدو	

قل هل علم . او هل عهد . او كان
كالمعتصم . والمتضد . ما كان

ولهم في الخرجات رأي غريب ، وها هو ذا ابن سناء الملك يقول : « والشرط فيها (أي الخرجة) أن تكون حجاجية من قبل السخف ، قُزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من الفاظ العامة ولغات الدائمة^(١) » فان كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقوال خرج الموشح من أن يكون موشحاً إلهم إلا أن كان موشح مدح وذكر المدوح في الخرجة فانه يحسن أن تكون الخرجة معربة ... » . (ص ٣١)

(١) الدائمة : جم الدائس وهو اللص . اشتهر ابن الحجاج في المشرق بالواد والهلل ، وابن قزمان باللحن والزحل في المغرب .

وإذن فإن كان الغرض من الموشح مديحاً أو كلام جسد ، فلا بد من مراعاة القواعد النحوية والصرفية في الخرجة ، وإن كان الغرض لهواً أو مجوناً أو تنديراً فلا بد من أن يجول الشاعر بحال المجان من الشعراء الذين لا يبالون أن يتعرضوا إلى الدعارة والفسوق في أفوالهم وأن يخرجوا على القواعد النحوية المألوفة أو الكلمات الصحيحة ، ومن أجل هذا كثرت ألفاظ العامة وسخفهم وطريقتهم غير المعربة في كثير من الموشحات وفي الخرجات خاصة ، وإذا كان ابن سناء الملك قد ذهب إلى أن تلك الطريقة أصل في الموشح وأنه لا بد من سلوك ذلك المسلك من اللحن والتحليل من القيود فإنا لا بشيبي (٧٩٠ - ٨٥٢ هـ) قد أنكر اللحن على الوشاحين ورأى أن الموشح والعروض والدوبيت يجب أن تكون معربة أبداً ولا

يغتفر فيها اللحن (المنظر ٢٧٧/٢)

فما ورد من المراجعات العامة قول ابن بتي : (٣٢ و ٧١ دار)

انا وانتا اسوة هذا الهجر

بالصبر بنتا مع انصداع الفجر

ومذ رحلنا	غنى الجوى في صدري
سافر حبيبي	سَحَرْتُ وما ودعتو
يا وحش قاي	في الليل إذا انكرتو

وكان المتقدمون ينصحون بأن ينظم الشاعر الخرجة قبل نظم الموشح ، لتكون الخاتمة مهيأة بما فيها من طرافة أو مسخف أو مجون أو تصريح بما لا يرضى من القول ، فاذا لم يتهيا له شيء من المعاني الصريحة أو المجون الظاهر في خرجة مناسبة فلا بأس بأن يستعير من شعر غيره ما يعجب أو يطرب ، فيتخذه خرجة لموشحه من قبيل الاستعارة والتضمين ، وهذه الطريقة عندهم أصوب وأفضل ممن يحدّ وبعرب ، فلا يخف ولا يطرب ، وإذا لم يجد ما يناسبه في العربية المألوفة ، فلا لوم عليه ان يستعير ذلك من الأعجمية أو العامية ، كل ذلك جرياً وراء المعنى السوقي ، واللفظ الصريح ، والفكرة الغريبة ، أو الأدب المكشوف ، ومراعاة الذوق الذي فسد بتحكم اللحن فيه ونبوته عن الفصحي ، وقد دلنا ادب الأندلس الكبير ابن شهيد الذي عاش في القرن الخامس على مبلغ ما وصل إليه انتشار

الاحن حين قال عن عصره إنه « ليس لسيدويه فيه عمل
ولا للفراهيدي إليه طريق » (رسالة التوايع والزوابع في الذخيرة ٢٢٩/١)
فمن الخرجات الجيدة المستعارة ما تراه في آخر هذا الموشح
الذي يتركب قفله من جزأين وبيته من ثلاث فقرات .

شمس قارنت بدرا راح ونديم
أدراكوس الحر عنبرية النشمر ابن الروض ذو بشر
وقد درع النهر هبوب النسيم
وسلت على الأفق يد الغرب والشرق سيوفاً من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم
ألا إن لي مولى تحكم فاستولى أما إنه لولا
دموع تفضح السر لكنك كتوم
أنى لي كمان ودممي طوفان شبت فيه نيران
فمن أبصر الجرا في لج يوم
إذا لامني فيه من رأي تجنيه شدوت أغنيه
(لعل له عذرا وأنت تلوم)

فهذا الموشح يتضمن ستة أقفال ويبتدي بواحد منها وفيه
خمسة أبيات فهو موشح تام وفي آخر البيت الخامس سبيل
التوصل إلى الخرجة وهو قوله (شدوت أغنيه) وهذه الخرجة

التي انتهى بها مستعمارة من الشعر القديم يتمثل بها في أما كن
 الاعتذار عن اللوم : لعل له عذراً وأنت تلوم :
 ولابن الوكيل موشح أخذ له اعجاز قصيدة ابن زيدون
 المشهورة وجعلها خرجات فقال :

يا صاحب النجوى	قف واسمع مني
إياك أن تهوى	إن الهوى يضي
لا تقرب البلى	اسمع وقل عني
بحاره مرة	خضنا على غرة

حيناً فقام بنا للنمى ناعينا

من هـام بالغيد	لاقي مرها
بذات مجهودي	لأحور ألمي
مر بالجود	ورد ما همأ
وعندما قد جاد	بالوصل او قد كاد

أضحى التناهي بدلاً من تدانينا

(نفع الطيب طبعة الرفاعي ٢٣٤/٥)

وكان ابن المعتز قال في قصيدة له :
 علموني كيف أسلو وإلا فاحجبوا عن مقلقي الملاحا
 فجاء ابن بقي وهو أحد الوشاحين المشهورين ، وجعل البيت
 خرجة فقال في آخر موشحة له :

لست اشكو غير هجر موصل

مذ منعت القلب عن عذل ماذل

وتغنيت لهم قول قائل

علموني كيف اسلو وإلا فاحجبوا عن مقلتي الملاحا

واستعارة الأبيات من الشعر الموشح لا يقف عند القفل

الآخر، فربما عمد الموشح إلى أخذ بعض الألفاظ من الشعر

القديم ليجمعها في بيت من أبيات موشحه، وهذا كهماجم

يقول :

يقولون تب والكأس في كف اغيد وصوتُ المثاني والمثالث عالي

فقلت لهم لو كنت اضمرت توبة وابصرت هذا كله لبدالي

فقال ابن بقي، وحلّ في موشحته هذين البيتين وجعل

الاستعارة ضمن الموشح :

قالوا ولم يقولوا صواباً

انفيت في المجون الشبابا

نقلت لو نويت متابا

والكأس في يمن غزالي والصوت في المثالث عالي لبدالي

الاسماء والافعال والنوع

وإذا عدت بعد هذا تنظر في تركيب الموشح وترتيبه ، وكيف يبدأ بالقفل ، وبمقبة البيت ، ثم يتداول النظم ما بين أمور أساسية ملتزمة ، وفروع يلتزم فيها شيء ، ويطلق شيء آخر ، إذا نظرت في ذلك تبين السبب في تسمية بعضهم القفل (باللازمة) لما يلتزم فيه من الروي والوزن والعدد في جميع الأفعال ، وتسمية البيت (بالدور) لأنه يدور فيأتي غيره مكانه مما هو غير ملتزم الروي في الصدر والعجز ، كما أنك تستبين ما عناء ابن خلدون في مقدمته حين قال عن الموشح : « ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً ، بكثرون منها ومن أطاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب . ويظهر لك من كلام ابن خلدون أن في الموشح أيضاً نوعين من التسمية هما الاسماء والأغصان ،

وبريد بهما الاقفال والآيات بدليل قوله « إنهم يكثرُونَ منها (أي من الأغصان) ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً » ، وقد رأينا كيف تتعدد الأَشْطَر وتؤلف البيت ، ويظهر من قوله أيضاً أن الأغصان هي الأجزاء التي تؤلف البيت ، بدليل قوله « ويشتمل كل بيت على أغصان » .
فالأسماط إذن هي الأقفال ، والأغصان هي أجزاء الآيات ،

وهو ما نرجحه ، وإن كان بعضهم يرى أن السمط هو القفل والبيت معاً ، وينفي هذا الرأي ما ينشأ عنه من نتيجة . ذلك أننا إذا سلمنا بأن السمط هو القفل والبيت الذي يليه معاً ، فأن يكون الغصن ؟ ومنشأ هذا التردد ، أن الذين تحدثوا عن الموشحات من القدامى ، لم يحددوا الأسماط والأغصان بأكثر مما حدده ابن خلدون ، حتى أن ابن سناء الملك وهو من أوسع من تحدثوا عن صنعة النوشبح لم يحدد الأسماط والأغصان .
ومن الغريب أن يذهب بعض المؤلفين الأجلاء إلى تسمية مقلوبة فيرى أن القفل الأول هو الغصن ، وإن البيت الذي

بليه هو السمط ، وان القفل الثاني هو القفل ، وان مجمرع هذين
الاثنين (السمط والقفل) هو البيت ، ولعل هذا راجع الي
عدم تبين عبارة ابن خلدون في بعض أماكنها الغامضة .

والناظر في أمثلة ابن سناء الملك العملية التطبيقية يرى وجه
الصواب الذي بسطناه ، ويجلو الغامض من عبارة سواه .

وأصل التسمية في الأسماط ترجع الى المعنى اللغوي في
السمط ، فهو القلادة او الخيط فيه لآلى واحجار كريمة
أو خرز ثمين ، وقد شبهوا به القفل إذ كان كالقلادة في الموشح
وشبهوا الأبيات بالأغصان ، إذ كانت متشعبة متفرعة ؛

وأما أصل تسمية هذا الضرب من الشعر باسم الموشح ، فلا شك
في أنه يعود إلى طريقة نظمه وترتيبه ، وتفنى الناظم في نظمه ،
ومخالفته بين الأقوال والأبيات ، جمالاً وطرافة ، فقد أوحى
هذه الأمور كلها ان تستعار كلمة التوشيح من اللغة ، إلى هذا
النوع من الشعر ، فأخذت الكلمة من توشيح الثوب إذا طرز

ووشي ، ووضعت له الحجارة الكريمة ، والوشاح : أديمٌ عريض
النسيج ، يرصع بالجواهر والآلي ، في نظمين متخالفين مـطوف
أحدهما على الآخر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، والتوشح
بالثوب هو أن يدخل الرجل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه
على منكبيه الأيسر ، كما يفعل المحرم في الحج ، ثم يعقد طرفيهما
على صدره .

وعرف عن الموشحة من الظباء والشاء والطيـر أنها ذوات
الطرتين من جانبيها ، والوشحاء من المـز السوداء الموشحة ببياض ،
والديك الموشح هو الذي له خطتان كالوشاح .

ولما ألف ابن سناء الملك كتابه (دار الطراز) في عمل الموشحات ،
لاحظ معنى النسيج الموشح في اسم الكتاب ، فإن أصل دار الطراز :
المصنع الذي تصنع فيه الثياب الحريرية الموشاة التي كانت تعمل
للأمراء والسلاطين ، كما سيأتي الكلام على ذلك فيما بعد .

أصل الموشح وتناوره

ولك أن تتساءل بعدُ ، عن هذا المنزع في الحرية الشعرية وكيف خرج به أهلوه إلى الكلام المالحون واللفظ الأعجمي الردي ، وما كان للشعر الذي أحب أن ينطلق من القيود القديمة ، أن يسف إلى هذا الموضع ، فيتبدل بالفصاحة عجمة ، وبالجذ هزلًا ، وبالجودة رداءة وإسفافًا .

وإذا كان اللحن قد شاع في ربوع الأندلس أيام الموشحات فما هو فيما أحسب أكثر ذبوعًا مما ترى في عصرنا الحاضر ، ومع ذلك فالتناس اليوم لا يرتضون من الشعراء مثل ما كان يرتضي الأندلسيون .

وأحسب أن سر ذلك الإسفاف ، كثرة الاختلاط بالاعاجم من أهل جزيرة الأندلس ، فقد كثر التزاوج بين الجنسين : العربي والأسباني ، واستسلم الفاتح لعادات المغلوب ، وكثرت أنواع الملاحى التي أغرق فيها الشعب العربي ، والجيل المزيج ، واتصلت الأفكار بين العرب وغيرهم ، وكان أدب الأسبان

في ذلك العهد لا يذبحا يرعاه الخواص ، وكان للأسبان عامية نشأت عن الأصل اللاتيني ، كما نشأت لغات عامية ثانية في بلاد الأفراسيين والاطليان وغيرهم ، وكان للعامية الاسبانية شعراء يتفنون بأشعارهم التي بنقصة السكال في الأوزان والقوافي ؛ وهنا يرى فريق من الباحثين ان تلك الاغاني الشعبية الاسبانية التي كانت على مسمع ومرأى من العرب ، هي التي دعت الفاتحين الى أن يقلدوا في التحرر من القوافي والأوزان ، وان يميلوا إلى الألفاظ الأعجمية الشائعة ، وساعدهم على ذلك ما وجدوا في الشرق من محاولة الانطلاق من القيود الشعرية الموروثة ، ويستدل الذين يقولون بتأثير الاغاني الشعبية الاسبانية على الشعر في نشأة هذا الفن ان أوزان الموشحات لا تنطبق على أوزان الشعر المعروفة ، وانها تعتمد على صنعة الغناء أول ما تعتمد . وإذا كانت الاغاني الشعبية الاسبانية غير موجودة الآن لتصح المقارنة بينها وبين الموشحات ، فهناك مقطوعات شعراء التروبادور الذين كانوا في جنوب فرانس في القرن العاشر

والحادي عشر ، فقد كانوا يتفنون بها ويتغزلون ويمدحون ويصفون ، إلا أنها كانت هزيلة المعاني لا تلتزم القوافي الواحدة ، بل أنها لتتغير بعد كل ثلاثة أجزاء أو ستة ، مع محافظتها على الوزن الذي ترد فيه أولاً .

وقد عاشت هذه الأناشيد في القرن الثاني عشر ، وهو العصر الذي عاشت فيه الموشحات ، ولذلك يغلب على ظن ذلك الفريق ان تكون أناشيد التروبادور موشرة في نشأة الموشحات ، أو على الأقل عاملة على تأييد بعض خصائص التواشيح ، من عامية وانطلاق ، فان ما عرفه الأندلسيون العرب من ذلك الغناء مع ما عرفوا من بدء انطلاق الشعر ، حمل فريقاً منهم على ابتكار الفن الجديد ، فبدأوا أولاً بتقليد الشرق في الانطلاق ثم نظموا للغناء أيام ازدهاره ، ما جمع بين خواص الشعر والاغاني فكان فن الموشحات .

أوزان الموشح

بلاحظ قاري الموشحات أمراً مهماً في أوزانها ، إذ يراها خارجة على الأوزان المعروفة في كثير من الأحيان ، والواقع أن الموشحات على ضربين : الأول منها ما جاء على أوزان العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ، ولا المام له بها . فاما الضرب الأول ، وهو ما جاء على أوزان الشعر القديم فقسمت : قسم بقيت أفعاله وأبيانه موافقة لأوزان الشعر القديم فلم ترد فيها كلمة تخرجها عن تلك الأوزان ، فكان الشاعر لم يتحرر من الأوزان القديمة ، ولا استفاد من الرخص الجديدة ، ولذلك ترى بعض العلماء لا يعدون هذا شيئاً في فن الموشح ، ولا ينظرون إليه نظرة الاعتبار والتجويد ، وربما عدوه من قبيل الخمسات ، وقد يحتلون ذلك الموشح محل الاعتبار ولو كان طبق الوزن القديم اذا كانت أفعاله وأبيانه مختلفة القوافي ، فانه يخرج عن الخمسات ويعتبر موشحاً أصيلاً كالـموشح المشهور : م (٣)

إيها السافي اليك المشكى قد دعوناك وان لم تسمع

نديم همت في عرته

وشرب الراح من راحته

كما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكا وسقاني اربعاً في اربع

وبسمون أشباه هذا الموشح بالموشح السعري اذ ينطبق كل

الانطباق على بحر (الرمل) ، أحد البحور الشريضية المعروفة

ولا يخرج منه عن هذا البحر حركة ولا كلمة .

وأما القسم الثاني فهو ما التزمت فيه الأوزان القريبة ولكن

تخللت كلمة أو مركبة أجنبية عن أن يكون طبق تلك الأوزان

كقول الشاح :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم اقل المعطيل هجراني معذبي كفاني

فهذا من (المنسرح) لولا قوله : (معذبي كفاني) فانها

أخرجتنا الموشح عن المنسرح ، ويسمى أشباه هذا الموشح بالموشح

السعري الذي أجنبية كلمة عن أصله ؛ ومثله :

ياويع صبر الى البرق (ي) له نظا وفي البكاء مع الورق (ي) له وطرا

فهذا من (البسيط) ، ولكن التزمت في الوسط قافية متحركة

بالكسر ، وتكلف الوشاح لها الى آخر الموشح .

ولو عدت نقرأ البيت مع مد حركة الكسر (آخر القاف)
وأشباعها حتى تصبح ياءً لوجدت ان البيت لم يخرج عن
البسيط فهو موشح شعري أخرجه الحركة عن أصله .

هذان هما القسمان من الموشحات الشعرية التي تنطبق على
الأوزان القديمة ، ونلاحظ في هذا المقام أن الوشاحين كانوا
يعتمدون في الموشحات الشعرية على البحر الخفيفة أو القليلة
الاستعمال كالرمل والمفرح والمضارع والمقتضب والمجث .

وهناك ضرب ثانٍ للموشحات وهو ما لا وزن له من
أوزان الشعر القريب ولا المقام له بها ، وهو الأكثر عدداً في
الموشحات ، البعيد حصراً في الأوزان .

وهذا الضرب لا يعرف إلا بالتاجين ، ولا يعلم صحبته من
مكسوره إلا في الغناء به على الأَرغن ، وهو الأصل ، أو على
غير الأَرغن ، وهو مستعار .

وكان ابن سناء الملك قد حاول أن يضع لهذه الموشحات المنحرفة من الأوزان القديمة ضوابط وأوزاناً خاصة ، فاعجزه ذلك ، وجاء أخيراً المستشرق الألماني (هارتمان) فحاول إرجاع تلك الأوزان إلى ستة وأربعين ومائة وزن أو بحر ، مشتق من البحور أو الأوزان العربية المعروفة من قبل ، ولكن ذلك كان من قبيل التكلف أولاً ، ثم انه لم يستطع أن يمحصر كل الموشحات المعروفة ضمن نطاق من الأوزان المقررة ، إذ بقي كثير من الموشحات لا تخضع للأوزان التي أوجدها ، والسبب في ذلك كونها في الأصل متعلقة بالتلحين والغناء كما مر ، فتجد الأبيات في بعض الأحيان على أوزان الاقوال ومن أبحرها ، وتجد في بعض الأحيان الأخرى تبيناً بين أوزان الاقوال وأوزان الأبيات ، بسبب ما تقتضيه صناعة الغناء والالخان مما كان يعرف في أيام ازدهار النواشيع ، فصنعة الغناء إذن هي الميزان الذي توزن به الموشحات المضطربة الأوزان المختلفة الالخان ، وكان اللحن الموسيقي وحده هو الذي يعدل من اضطراب الموشح ، كما كان

الذوق الفني وحده هو الذي يميز بين الصحيح والسقيم ، ومن هنا تبين ان من العمل الذي لا يجدي ان نستقصي الاوزان ونحصرها في هذا الفن ، وان نحاول اقامة اوزان مقرررة للنظم في الموشحات ؛ هذا ولا بد من الاشارة هنا الى انتفاع فريق من الوشاحين من بعض الاوزان المستحدثة والمشتقة من الاوزان القديمة ، ولندكر هنا المحاولات في ايجاد اوزان جديدة كالمستطيل المأخوذ من الطويل والذي وزنه (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) مرتين ، وكالممد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن) مرتين ، وهو عكس المديد ، وكالمثد ووزنه (فاعلاتن مستفعان) مرتين ، وكالمسرد ووزنه (مفاعيلن مفاعيلن فاعلاتن) مرتين ، وكالمطرده ووزنه (فاعلاتن مفاعيلن مفاعيلن) مرتين .

فكان من هذه الابحر الجديدة مع الابحر القديمة المهمة أو المستعملة ، ثروة عروضية للموشع فضلاً عما كان يُعتمد عليه في صنعة الغناء من وزن ايقاعي .

خصائص الموشح الفنية

أغراض الموشح

تناول الموشح جميع أغراض الشعر من غزل ووصف ومدح ورثاء ، وهجاء ، ومجون ، وزهد ، وسمي ما كان لازهد خاصة باسم (المكفّر) ، وجرت العادة في هذا النوع من الموشحات ألا يعمل إلا « على وزن موشح معروف ، وعلى قوافي أقفاله ، وإن يختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفّره ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره » كما يقول ابن سناء المالك ص ٣٨ . وشاع نظم الموشح في الفنون والأغراض المختلفة وتجاوز فيه الوشاحون الغاية من اللطف « فاستظرفه الناس — كما قال ابن خلدون ص ٥٤٢ — جملةً ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقته » .

على أن هذه السهولة قد خرجت بالموشحات عن النظم المتين الرصين ، واللغة الجزلة القوية ، مما عرف به الشعر العربي

أيام ازدهاره ، وأخذت اللغة الادبية في الموشحات ترتدي طابع
اللين والرقّة حتى بلغت في بعضها مبلغ الركافة والهملة ، بل
مبلغ الاعتماد على العامية الهزيلة واللحن المغتفر المطلوب ، وتلك
خاية لا تحمد ، وإن كانت الغاية من الموشحات قبل كل شيء
استجلاء الطرب ، وإمتاع القلوب .

وشحنت الموشحات بأنواع الخيال المرح ، فكثرت الاستعارات
والمجازات والتشابه والكنايات والمحسنات اللفظية والمعنوية
كالقورية والجناس وغيرها .

وغنيت الموشحات بالألفاظ الموسيقية العذبة التي تسحر
بمعناها ، أكثر مما تؤثر بمعناها ، والتي تطرب بريقها ، أكثر مما
تعجب بصحتها ، فقد كان اللفظ المطرب هو المقصود ، وإذا
توالت الجمل على تراخ في المعاني وعدم ترابط بين أجزائها
فإن ذلك لم يكن عيباً ما دامت فكرة التغمي هي السائدة ،
وما دام الإيقاع الحسن هو المطلوب ، ولذلك تقف عند
بعض الموشحات وقفة من لا يجد بين المعاني وشائج وثيقة

تربط بعضها إلى بعض ربطاً محكمًا ، لان التسلسل المنطقي في
العبارات ، والتتابع الفكري في المعاني ، لا يقصدان بمقدار ما يقصد
حسن توالي الكلمات ، وجمال جرسها الموسيقي ، وعذوبة وقعها
في النفس والأذن .



تألق الموشح

وفتأه الزمحل

لا ريب في أن تعدد الأوزان واختلاف القوافي ، والاعتماد على الألحان ، والضرب على الآلات ، والجنوح إلى المعاني الطريفة والأفكار الغريبة ، كل ذلك كان السبيل إلى أداء الغرض الذي ترمي إليه الموشحات ، من اشاعة الطرب في النفوس وإدخال اللذة إلى القلوب ، وهذا سر رواج فن التوشيح في الاندلس ، بلد الهوى اللعوب ، والنعمة الوارفة ، ومنه انتقل إلى بلاد المغرب ، وعنها أخذ المشرق هذا الفن البديع ، واسكنه لم يلحق رجال الاندلس السابقين اليه ، وليس معنى هذا ان المشرق لم يجلّ في هذا المضمار ، ولا كان لشعرائه من التجويد فيه نصيب ، وهذا ابن سناء الملك المصري في دار الطراز ، يعقب على موشحات الاندلسيين بموشحات من نظمه ، وفيها ما هو من الفرر في هذا الفن ، فكأنما كان يتحدى المتقدمين بما جاء به ، رغم إظهاره للتواضع في مقدمة

كتابه ، واعتذاره بانه لم يأخذ هذا الفن من منبعه ، ويقول
ابن خلدون عن إحدى موشحات ابن سناء الملك ، انها اشتهرت
شرقا وغربا ، وهي التي يقول في مطلعها تمهيدا :

يا حبيبي ارفع حجاب النور عن
تظنر المسك على الكافور في

العتار
جلتار

ثم يبدأ بالاقفال والابيات فيقول :

كلبي . يا سحب تيجان الرنى بالحي
واجعلي . سوارها منعطف الجدول
يا سما . فيك وفي الأرض نجوم وما
كلا . أخفيت نجما أظهرت انجما
وهي ما . تهطل الا بالكلى والدماء
فاهطلي . على قطوف الكرم كي تنجلي
واقلي . للدن طعم الشهد والفؤوقلى
تنقذ . كالكوكب الذري المرتصد
يعتقد . فيها الجوسي بما يعتقد
فائد . يا ساقى الراح بها واعتمد
وامل لي . حق تراني عنك في معزل
قليل . قالراح كالعشق ان يزد يقتل

لا اليم . في شرب صهبا وفي عشق ريم .
 فالنعم عيش جديد ومدام قديم .
 لا اهييم . الا بهذين فقم يا نديم .
 واجل لي . من أكؤس خبرت من فوق
 الدلي . من نكهة العنبر والمندل

(المقدمة ٤٨ هـ والمستطرف ٢٧٨/٢ وازهار الرياض ٢١٦/٢)

وهكذا نجد فن التوشيح ينتقل من المغرب الى المشرق
 ويخرج من أفق المغنيين وأهل اللهو والطرب ، إلى آفاق
 رجال العلم وشيوخ الأدب ، ثم يستفيض بين الناس ، وينحدر
 إلى العامة بعد ان كان يأخذ منها الطرفة والملحة ، وإذا هو
 شيء جديد ، وفن عامي اسمه (الزجل) .

يقول ابن خلدون : المقدمة ٤٨ هـ والازهار ٢١٧/٢

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور
 لسلاسته ، وتميق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامة
 من أهل الأندلس على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم
 الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيها اعرابا ، واستحدثوا فنا

سموه (الزجل) والتزموا النظم فيه على منحبرهم الى هذا العهد ،
فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة .
فالموشحات إذن هي التي أغرت العامة بان ينسجوا على منوالها ،
ولكن بطريقتهم الخاصة ، فأدى الامر إلى الانحدار باللغة ؛
ومن أجل ذلك قال بعضهم عن فن الموشح : إنه كان ذا أثر
سيء في الأدب .

والحقيقة ان فن الموشحات لم يكن صاحب الاثر
السيء في الأدب ، لأن الشعب العربي نفسه ، كان يسير نحو
المعجمة ، بسبب كثرة الاختلاط والامتزاج بالاعاجم في المغرب
والمشرق ، وكان العلماء يجأرون بالشكوى من استفحال المعجمة ،
وكان (الزجل) وغيره صورة عن الطبائع الشاعرة التي لا تستطيع
الانصاح عن شعورها بالكلام الفصيح ، فن غير الحق ان
نحمل فن التوشيح جريرة المبالغة في الانحدار الى هاوية المعجمة ،
لان فن التوشيح نفسه سقط في هذه الهوة حين قالوا بوجوب

تضمنه الكلام العامي والسوفي ، وجوب تأييده بنفسه عن القواعد
المرعية في صحة الكلام .

وإذا لم يكن الموشح مظهرًا من الانحدار في الشعر ، فهو
ليس مظهرًا لا يسمى ما بلغه الشعر من الرقي أيضًا ، لأن الروائع
التي خلفها المخلدون في الأدب كأبي تمام والبحتري وأبي الطيب ،
وغيرهم كثير ، ليست في حكم التقدير والاعتبار باقل من
الموشح ، وعندنا أنها أدوع وابدع وأبرع .

وهنا لا بد من الاقرار بأن الموشح ثمرة من ثمرات الفكر
الشاعر ، والعاطفة المتوقدة ، وصورة من صور الأدب ، ومظهر
من مظاهر الحياة الاجتماعية ، ومن الجور على أنفسنا وعلى
الأدب أن نقرر أن الشعر ارتقى صعودًا ، أو انحدر صديقًا ، فكان
الموشح ؛ انه فن من فنون الشعر ، لم يحاول أن يقهر القصيدة
العربية فيقنيها لتبقى له مظاهر الابداع ، ولا حاولت القصيدة
أن تفنيه لتظل خالدة وحدها .

لقد سارت القصيدة العربية باوزانها وأغراضها الى يوم الناس

هذا ، على ما يعرف عنها ، ولكن نبت على جذعها فرع نعهده من نعهد ، وطعمها بما طعم فسات له ثمرة غير الأصل ، فيها لذة ومتمعة ، ولها من الأم الغذاء والمستند ، ولكنها غير الثمرة الأصلية على كل حال ، طعمًا وشكلًا ولونًا .

وقد استطاب الناس هذه الثمرة الجديدة في الأدب والغناء وأولعوا بها ، واحتفظوا بروائعها ، وما يزال الناس في المشرق والمغرب العربيين يذكرون (الموشحات الاندلسية) و (النوبات الاندلسية) كما تذكر الروائع من موسيقى الغرب وآدابه ، ولعل تعلق الناس بهذا اللون من الأدب والغناء ، يرجع إلى رئيس الحنين إلى الأندلس ، وتهف القلوب للمجد الضائع ، والفردوس المفقود ؛ هذا بالإضافة إلى ما في نظم الموشحات وما في ألحانها من عذوبة ودروعة وإلّا فلم لا تتردد كلمة (الأندلس) حتى يشعر العربي والمسلم بحجو من السحر الأخاذ والعبق الكريم ، لم يحرصون على أن يحتفظوا بهذه الصفة (الاندلسية) لطائفة من الأغاني والألحان حين يقولون (نوبه أو موسمه أندلسية)

ولم يطلق عليها المغرب العربي إلى اليوم هذا الاسم (كلام غرناطة)^(١)
لو لم يكن إلى جانب المتعة الفنية ، ذكرى نفسية تكمن في
أعماق النفوس العربية والمسلمة ؟

ان فن الموشح الذي كان صنو الغناء ، والذي ازدهر بازدهار
الموسيقى العربية منذ حوالي ثمانمائة عام ، استطاع أن يحمل في
كيانه الخاص ، عنصر الخلود والروعة ، فأعجب الأفكار ، وأطرب
النفوس ، وخلق الافئدة ، وشاقلته الايام كاحسن ما تناقل
من الارث الحبيب .

(١) المستشرق هنري بيردس في كتابه (الشعر الاندلسي) بالفرنسية ص ٣٩٣

السابقون الى التوشيح

رأيت أن العبقرية الاولى التي تفتحت عن فن الموشح ،
كانت عبقرية أندلسية خالصة ، غرست للناس غرساً تمهيدته
الأنحان ، وسهرت عليه الأهواء ، فما وزكا ، وآتى أكله
يانعا شهياً .

وقد زعم قوم ان السابق الى الموشح شاعر عباسي مشهور
هو ابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦) ونسبوا اليه الموشح المعروف :
أيها الساقى إليك المشكى قد دعوناك وإن لم تسمع

والصحيح الثابت أن هذا الموشح أندلسي ، نسبه صاحب
طبقات الأطباء إلى الحفيم أبي بكر بن زُهر^(١) الوشاح المشهور .
أضف إلى هذا أننا لا نعرف ابن المعتز وشاحاً ، أو ممارساً
لهذه الصنعة الشعرية الجديدة في جميع التراجم التي تحدثت عنه

(١) ورد في مقدمة ابن خلدون اسم (زُهر) مصحفاً هكذا
(زَهر) وهو خطأ مطبعي ، ووقع ذلك ايضاً في كتاب العذارى
المائسات في الأزجال والموشحات ، لجامعة فيليب قعدان الحازن .

ولا يضم ديوانه من الموشحات غير ذلك الموشح ، مع أنه كان صاحب لهُو وطرب ومُتعة ، والموشحات تناسب من كان في طباعه وأخلاقه ، فلو كان المخترع الأول للموشحات ، أو كان له من هذا الفن نصيب ، لوجد في مجاله لرحب انطلاقاً لمواظفة وشاعريته وأهوائه ؛ هذا إلى أن مؤرخي الأدب القدامى يذكرون عن ابن سناء الملك ، المتوفى في أوائل القرن السابع ، أنه أول من أدخل هذا الفن إلى المشرق ، وبذلك يظل فضل السبق إلى الموشحات مقصوراً على الأندلسيين ؛ وقد ذهب ابن بسام في ذخيرته (١/٢) وغيره من الباحثين إلى أن أول من وضع أوزان هذه الموشحات في أفق الأندلس ، واخترع طريقةً في نهاية القرن الثالث هو محمد بن محمود القنبري الضري من مدينة قبرة في الأندلس (أو هو محمد بن محمود ... كما في أزهار الرياض ٢٥٨/٢ وغيره)

وقالوا إنه كان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي (٤)

ويسميه المركب (أي كلمة الخرجة) ويضع عليه الموشحة دون
تضمين لها ولا اغصان (القنطرة ١/٢)

وذكر ابن خلدون ان المخترع لهذا الفن في جزيرة الاندلس
مقرم بن معافى القبري (لا مقدم بن معافى القبري كما ورد في
المقدمة مصحفاً ومحرفاً ، وعنه نقل بعض الأديباء) وهو من شعراء
الأُمير عبدالله بن محمد المرواني الذي امتد حكمه من ٢٧٥ الى ٣٠٠ هـ
وعن مقدم هذا أخذ ابن عسكراً صاحب كتاب (المعقد) ولم
يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان
اول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز ، شاعر المعتصم
ابن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر الأُعلم البطليوسي انه سمع
ابا بكر بن زهر يقول : « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز »
(المقدمة ٥٤٢ و ازهار الرياض ٢٠٧/٢)

وكذلك حكى الكاتب ابو الحسن علي بن سعيد العنسي في
كتابه « المقتطف من أزهار الطُرف » ان الحجارى ذكر
في كتابه « المسهب في غرائب المغرب » ان المخترع للموشحات

بجزيرة الأندلس هو المقرئ بن معافى القبري من شعراء الأمير
عبدالله المرواني ، وأخذ عنه أبو عمر بن عبد ربه صاحب (العقد)
ثم غلبها عليها المتأخرون ، وأول من برع فيها عبادة القزّاز
شاعر المعتصم صاحب المربية . (ازهار الرياض ٢/٢٥٢)

وقال ابن بسام في الذخيرة (٢/٢) « وقيل إن ابن
عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من
الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان
أول من أكثر فيها من التضمين في المراكيز » ثم نشأ أبو بهم
عبادة بن دار السمار (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ، فكملت على يد
الصنعة الجديدة ، ولم يظهر للسابقين الأولين ذكر مع المحدثين .
ومن هنا يتبين لك اضطراب القول في أول مخترع لهذا
الفن ، شأن كل جديد من الأمور ، وإن محمد بن حمود
(أو محمود) القبري ، أو المقدم بن معافى القبري ، كانا السابقين
وتبعهما ابن عبد ربه ثم جاء المجودون من بعد ذلك .

فيمكن أن يقال إذن إن القرن الثالث الهجري هو أول

عهد ظهرت فيه الموشحات الابتدائية التي لم يستقم أمرها ،
ولم ترسخ دعائمها ؛ وان القرن الرابع الهجري الذي بلغ فيه
فن الغناء أوجه وغاية مجده ، هو العهد الذي ازدهرت فيه
الموشحات الكاملة ، وان الوشاحين الذين جاءوا قبل القرن الرابع
لم يبلغوا مبلغ المجودين في ذلك العصر الذهبي للموشح ، والسر
في ذلك اعتماد الموشح على الانغام والايقاع وشد الأوتار ،
وما يلائم ذلك من حياة وادعة نشد المتعة والطرب ، مما تهيأ
كاملاً حوالى القرن الرابع .

وعلى هذا فيجب أن نلتبس التجويد في الموشحات منذ القرن
الرابع الهجري وما يليه ، على أيدي القزاز وابن ماء السماء وغيرهما
حتى إذا جاء القرن السادس الهجري وجدنا كتاباً يؤلفه ابن سناء
الملك ويسميه دار الطراز يتحدث فيه عن صناعة الموشح ، وينقل
إلينا فيه كثيراً من الموشحات القديمة ، والموشحات التي نظمها
هو نفسه ؛ وقد نشر هذا الكتاب الدكتور جودة الركابي بعني
به عناية كبيرة ، فوقع في نحو خمسين ومائة صحيفة من القطع

الوسط والحرف الدقيق ، ويتألف في الأصل من مقدمة المؤلف تحدث فيها عن حد الموشحات ، وقواعد عروضها ، وما اصطلح عليه فيها ، وضرب لذلك الامثال ؛ ومن قسمين في الأول منها بعض موشحات الاندلسيين والمغاربة ، وهي التي أخذ منها الأمثلة على القواعد المذكورة في المقدمة ، ويبلغ عددها اربعة وثلاثين موشحاً .

وفي القسم الثاني موشحات ابن سناء الملك نفسه ، مرتبة على نسق الموشحات المذكورة في القسم الاول ، ويبلغ عددها خمسة وثلاثين موشحاً .

ولعل مقدمة ابن سناء الملك أم ما في الكتاب ، لأنه شرح فيها النظرية الفنية في عمل الموشحات ، والقواعد المارعية في هذا الفن ، ويكون بهذا أول من قام بتحديد اصول الموشح بصورة واضحة بيّنة ، وان كان الذين سبقوه الى الكلام على الموشحات قد أشاروا بعض الاشارات الى تلك الاصول ،

الا ان الوشاحين الاندلسيين لم يذكروا لنا بصورة جلية الاسم
التي يجب أن يقوم عليها الموشح .

وتحدث المؤلف عن أوزان الموشحات واغراضها وعن تسمية
الكتاب باسم (دار الطراز) وقد كان ينبغي أن يسميه بغير
هذا ، كقانون الموشحات أو توشية التوشيح أو عقد الموشح أو غيره ،
ولكنه لم يجد أشمل وأكمل من لفظ (دار الطراز) لأن
معنى (الطراز) هو أجود الثياب المعروفة المطرزة التي تعمل
للسلطان ، ولأن معنى (الموشح) هو الثوب الموشى المطرز وعلى
هذا تكون (دار الطراز) هي الدار التي يعمل فيها حريري
الموشحات ومذهبها وتحفها وطرفها . فالكتاب هو تلك الدار
وان لم يكن الدار فهو الجار ، كما يقول المؤلف .

ويعتذر — بأخلاق العالم المتواضع — ان كان في موشحاته
مالا يبلغ مبلغ الموشحات الاندلسية الفاتحة ، لانه لم يولد في الاندلس ،
ولا نشأ في المغرب ، ولا سكن اشبيلية ، ولا ارسى على مرسية ،
ولا عبر على مكناسة ، ولا سمع الأثرغن ، ولا لحق دولة المعتمد

وابن صمداح ، ولا لقي كبار الوشاحين أمثال الانعمى وابن بقي
وعبادة والحصري ، ولا أخذ عن شيخ متقدم في هذا العلم ،
ولا وقع اليه مصنف في هذا الفن ؛ ثم اورد الموشحات المختارة
واتبعها بموشحاته التي صنعها بنفسه .

والذي نلاحظه على ابن سناء الملك انه كان في بعض المواضع
بعيداً عن الوضوح والطبع والسلاسة ، متأثراً بأسلوب عصره من
حيث كثرة التأنق في المفردات والسجع ؛

وشيء آخر هو انه لم ينسب الموشحات التي أوردها الى
أصحابها ، وهي من أفضل ما قيل في هذا الفن من قبل ، ومنها
استمد المؤلف القواعد التي ذكرها كأصول صرعية في التوشيح ؛
وإهماله هذا لذكر أصحاب الموشحات اهمال لا يُرضي ، وكان
على صديقنا الناشر أن يتلافاه حين رجع إلى المصادر المتعددة
اثناء التحقيق والطبع ، وألم بأصحابها ، وقابل بين ما طبع من
الموشحات وما كتب عنها من قبل ، وبين ما هو في نسخة
المؤلف التي يحقق فيها ، ولكنني أحسب ذلك شأن كل عمل

انساني يذهل صاحبه عن بعض ما يتعلق به ، رغم العناية الفائقة ؛
وشيء يسير آخر ، هو ترك الناشر شرح بعض الأفكار الواردة
في الموشحات ، مما يبدق فهمه على الدارسين ويسهل ايضاحه
على المدرسين ، وكان من الخير لو استدرك هذا لانه لا يعجزه .
وشيء ثالث هو ان قليلاً من التشكيل محرف لا تستقيم
معه بعض الكلمات ، وعسى أن يتلافى الناشر ذلك فيما بعد .
وأراني بعددٍ مقدراً جهد صديقنا الناشر وبحسبه ان يضع
بين أيدي الناس كتاباً كان مفقوداً هو من أحسن المصادر
في فن التوشيح ، مطبوعاً أحسن طبع ، معنياً به خير عناية ،
ثم أن ابن سناء الملك ، وقد أراد أن يسطر بعض الأصول
والقواعد المرعية في هذا الفن ، لم يتوخ أن يذكر أسماء النابهين
من الوشاحين في الاندلس ، ولا أن ينوه بشأنهم ، وقد استدرك
الناشر ذلك ببعض التعريف بأولئك الوشاحين دون الاضافة ، كما
عرف مؤلف الكتاب ، فاستحق الناشر على صنيعه وتعبه ، الجزيل
من الشناء .

عباقرۃ التوشیح

آلت الاندلس الى العرب الفاتحين سنة اثنین وتسعين للهجرة ، وظلت تحکم من قبل الولاة حتى كان عهد بني أمية الجديد ، حين دخل عبد الرحمن بن معاوية الاندلس واستولى عليها سنة تسع وثلاثین ومائة ، واستمر الحكم والخلافة الأمويان في الاندلس حتى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة حيث قام ملك بني حمود ، ثم انقض سنة ستین وأربعمائة ، وآل الامر الى ملوك الطوائف في الاندلس ، وتفرق ذلك الملك في جماعات من الموالي والوزراء وكبار العرب والبربر : تغلب بعضهم على بعض ، حتى أعطوا الاتاوة للملوك الفرنجة ، ثم أخذهم من الذل والفوضى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، حين نزل الجزيرة الخضراء سنة تسع وسبعین وأربعمائة ، ولم يزل يستولي على البلاد حتى تم له ما أراد ، وخاطب الخليفة العباسي في بغداد فعهده على المغرب والاندلس ، واستقر فيها ملك المرابطين (الملاحين) حتى توفي سنة خمسمائة ، واستمر المرابطون

في الحكم حتى غلب الموحدون على بلاد المغرب سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، واستولوا على الأندلس ، وثارت الفتن ، وحكم ابن هود ، ثم ثار جد بني الأحمر وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ، وظلت الأمور في اضطراب ، والعدو يتقدم ويستولي على البلاد ، والقوم في نزاع ، يغدر بعضهم ببعض ، ويقتل بعضهم بعضاً ، حتى تغاب عدوهم على الجزيرة الخضراء وأخذها صلحاً سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ولم يزل الأمر في الأندلس بين أيدي ملوك أصرع ، وقواد تغدر ، وشعب يتحدر ، وزعماء تغامر ، حتى تقلص الظل العربي وانكمش الاسلام ، فكانت الأندلس غنيمة الانحلال ، وضحية الأهواء ، سنة سبع وتسعين وثمانمائة .

وما كان لمثل هذا التاريخ الطويل الحافل ان يوجز في سطور ، لولا اننا نريد أن نذكر القارئ الكريم بأطوار الحكم التي مرت على الأندلس ، والأزمان التي عاش فيها الوشاحون الذين سنتحدث عنهم ، اذ كان من حق الدراسة ان تمثل أزمانهم ، ولو على سبيل الإيجاز ، لتتخيل تسلسلهم وتعاقبهم في الفن الذي شرحنا أصوله وفروعه ؛ واذا كانت من العسر أن تأتي على جميع

الوشاحين : الأندلسيين والمغاربة والمشاركة بالترجمة والاستشهاد ،
فلا أقل من الإشارة الى بعض العباقره منهم ، أولى الشهرة والتأثير
في نشأة هذا الفن وتطوره ؛ وهام أولاء على تسلسل الأزمان ^(١) :

ابن عبد ربه

(٢٤٦ - ٣٢٨) هـ (٨٦٠ - ٩٤٠) م

ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه ، الامام الأديب ،
وصاحب (العقد) . من أهل قرطبة ، كان جده الأعلى (سالم)
مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية .

(١) روجعت للتراجم والمنتخبات ، والمدراسة هامة ، مراجع كثيرة أهمها :
الخطط ، والاسلام والحضارة العربية لكرد علي . تاريخ الأندلس لأشباح
(الألماني) . الاوضاع الإسلامية لديموني (بالفرنسي) . الشعر الأندلسي
لبيره س (بالفرنسي) . الأعلام للزركلي . مطمح الأنفس وقلائد
العقيان للفتح بن خاقان . معجم الأدباء لياقوت . يتيمة الدهر للنعالي .
وفيات الأعيان لابن خلكان . المقدمة لابن خلدون . فوات الوفيات للإصلاح
الكتبي . نفح الطيب وازهار الرياض للعقري . الذخيرة لابن بسام . الاحاطة
للسان الدين بن الخطيب . دار الطراز لابن سناء الملك . الشعر في العصر
الأيوني (بافرنسي) ومحاضرات في الادب الأندلسي للركاني المستطرف
للأبشي . العقد لابن عبد ربه . الصبح للقلقشندي تقويم الحبيبي الدمشقي .
وكتب الأدب الحديثة في مصر والشام ولبنان للبستاني والحمصي والفاخوري وغيرهم

كان ابن عبد ربه شاعراً مشهوراً، وأديباً مذكوراً، وعالمًا
كثير المحفوظات والاطلاع على أخبار الأدباء، فجُمعها في العقد،
وأبلغه العلم والأدب ما يشتهي من الغنى بعد الفقر، إذ كان في
العلم ثقة، وفي الأدب حجة، وفي الشعر غاية؛ استطارت
شهرته في المشرق والمغرب ولقب (بمليح الأندلس)؛ قبل
أن المتنبّي كان في جامع عمرو بن العاص فجاءه أندلسي يريد أن
يجتمع إليه، فقال له المتنبّي: أنشدني لمليح الأندلس، فأنشده قول
ابن عبد ربه:

يا لؤلؤاً يسبي العقول أيقنا	ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	دراً يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه	أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره في رقعة	ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فاستعاد المتنبّي الأبيات وقال: «يا ابن عبد ربه، لقد تأنيك
العراق حبواً».

ولابن عبد ربه القصائد (المحجّصات)، وهي قصائد ومقاطع
في المواعظ والزهد، تقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل.

وكتابه (العقد) من أشهر كتب الأدب ، وله أراجيز في
في تاريخ الخلفاء الراشدين ، وغيرهم ، وطبع من ديوانه خمس
قصائد ، وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام .

يوسف بن هرون الرمادي

(٤٠٣ — ٥٠٠) هـ (١٠١٢ — ٥٠٠) م

ابو عمر يوسف الكندي الرمادي ، نسبة الى رمادة وهي
بلدة في المغرب ، كان أصله منها ،
شاعر أندلسي ، مولده ووفاته في قرطبة ، عالي الطبقة ،
كثير الشعر ، سريع القول ، مشهور عند الخاصة والعامة هنالك
لسلوكة في فنون المنظوم مسالك تتفق عند الجميع ، اذ كان
يحزن في الشعر ويسهل ، فاجمع القوم على تفضيله .
كان معاصراً لابي الطيب المتنبي ، وكان كثير من شيوخ
الأدب يقولون : « فتح الشعر بكندة وختم بكندة » يعنون
بذلك امرأ القيس ، والمتنبي والرمادي .

لزم ابا علي القاضي صاحب الامالي حينما قصد الاندلس سنة ٣٣٠ وأخذ عنه وروى كتابه (النوادر) ومدحه بشعر جيد .
نسب اليه من الشعر في دولة الخلافة ما ألقاه في السجن طويلاً ، وأدرك الفتنة فخاض لجتها ، ولحقته فاقة لزمته وأنهكته حتى أهلكته ، وقد عمر طويلاً ، وخلف كثيراً من الشعر ، وكتاباً له في (الطير) ومن شعره :

بدرٌ بدا ، يحمل شمساً بدت	وحدوها في الحسن من حد
تغرّب في فيه ولكنها	من بعد ذا تظلم في خده
وله :	

في اي جارحة اصون معذبي	سامت من التعذيب والتكيل
ان قلت في بصري فثم مدامي	او قلت في كبدي فثم غليلي
وثلاث شيبات نزلن بفرقي	فعلت ان نزولهن رحيلي
طلعت ثلاث في نزول ثلاثة	واش ، ووجه مراقب ، وثقيل

ابن ماء السماء

(٤٢٢ - ٠٠٠) هـ (١٠٣١ - ٠٠٠) م

أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة بن ماء السماء ، من ذرية سعد بن عبادة الانصاري ، وقيل له ابن ماء السماء لخدم الاول . كان عبادة رأس الشعراء ، منتجعاً بشعره ، بعيد

الهمة ، وهو الذي أقام عماد الموشحات وهذب ألفاظها وأوضاعها
 واشهر بها اشتهاراً غلب عليه ، فكانها لم تسمع الا منه .
 ضاعت له مائة مثقال فاعتم عليها وكانت سبب وفاته في مائة
 وله شعر حسن منه قوله :

لا تشكون اذا عثر	ت الى خليط سوء حالك
فيربك ألواناً من الـ	إذلال لم تخطر ببالك
اياك ان تدري بـ	نك ما يدور على شمالك
واصبر على نوب الزما	ن وان رمت بك في المهالك
والى الذي اغنى واق	نى اضرع وسلته صلاح حالك

ابن القزاز (القرن الخامس)

ابو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ،
 (وعبادة القزاز أيضاً) شاعر المعتصم بن صمدح صاحب (المرية)
 المتوفى سنة ٤٨٤ هـ .

من مشهوري الشعراء والأدباء ، وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ
 نظمه في أوزان الموشحات ، وقد برع في نظمها ، وشهد له
 المتقدمون بالتفوق والتقدم ؛ فقال ابو بكر بن زهر : كل
 الوشاحين عيال على عبادة القزاز ؛ وكان فيما اتفق له من ذلك قوله :

بدرُ تيم	شمسُ ضحى	غصنُ ثقا	مسكُ شم
ما أنم	ما أوضحا	ما أورقا	ما أنم
لا جرم	مَن لحما	قد عشقا	قد حريم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة .

أبو الحسن الحصري

(٤٨٨ - ٥٠٠) هـ (١٠٩٥ - ١١٠٠) م

علي بن عبد الغني الفهري المُقريء الضري ، ولد في القيروان وتوفي في طنجة ، قال عنه ابن بسام : « كان بحر براءة ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طراً على جزيرة الاندلس في منتصف المائة الخامسة بعد خراب وطنه من القيروان ؛ فتهادته الملوك وتنافسوا فيه » .

كان ضيق العطن ، يتلفت الى الهجاء تلفت الظمان الى الماء . وكان عالماً بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس للقرآن الكريم بسبته وغيرها ، وله قصيدة نظمها في قراءات نافع ، وديوان

شعر جيد ، ومن أشهر شعره القصيدة السائرة التي غني بها كثيراً :

يا ليل الصب متى غده اقيام الساعة موعده
رقد الثمار فارقه اسف للبين يردده

وقد عارضها كثير من الشعراء ، فمن القدماء الذين عارضوها

ابو الفضائل القمراوي فقال من قصيدته :

قد ملّ مريضك عودُهُ ورتني لأسيرك حسده
لم يبق جفاك سوى نفس زفرات الشوق تصعده

وقد طبعت المعارضات الحديثة في رسالة صغيرة عنوانها

(معارضات يا ليل الصب) وليس فيها كل المعارضات الحديثة

ولا القديمة .

وكان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية — ويسمى الاندلسيون

حمص أيضاً — بعث الى أبي الحسن الحصري بخمسمائة دينار

ليحضر اليه من القيروان ، وكان الروم اذ ذاك مسيطرين على

البحر فكتب الى المعتمد :

امرتني بركوب البحر اقطعه غيري ، لك الخير ، فاخصمه بهذا الداء
ما انت نوح فتنجيني سفينته ولا المسيح انا أمشي على الماء

ودخل الانداس بعد ذلك ومدح المعتمد ، ثم توفي في طنجة .

وابو الحسن هـ هذا ابن خالة ابي اسحق الحصري صاحب
زهر الآداب المتوفى في القيروان سنة ٤١٣ هـ على رأي
ابن خلكان ، أو سنة ٤٥٣ هـ على رأي ابن بسام

ابن بقي

(٥٤٠ - ٠٠) هـ (١١٤٥ - ٠٠) م

ابو بكر بن يحيى بن عبدالرحمن بن بقي الاندلسي القرطبي :
شاعر ذو روائع في الشعر ، اشتهر في اجادة الموشحات ،
وتنقل في كثير من البلاد المكاسا للرزق ، وكان الحرمان الزم
له من ظله ، حتى وجد من أقطعه جانباً من العيش فمدحه .
وأنتى عليه المترجمون له ، وعدوه من محاسن دولة المائمين وذكروا
له كثيراً من جيد الشعر كقوله :

يا افتك الناس الحاظاً واطيهم	ريقاً مقى كان فيك المصابُ والعسلُ
في سخن خدك وهي الشمس طالعة	وردٌ يزيدك فيه الراح والحجل
إيمان حبك في قلبي بمجده	من خدك الكتب او من لحظك الرسل

وحياة الشعراء في دولة المائمين تأتي بعد من كانوا في عهد

ملوك الطوائف كالقزاز وابن ارفع رأسه ، ويعتبر ابن بقي
والأهمى التطيبي أسبق من جاء في عهد الملثمين .

زعموا ان أبا بكر بن زُهر قال : ما حسدت قط وشاحاً

على قول الا ابن بقي حين وقع له قوله :

أما ترى احداً في مجده العالي لا يلحق
أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

ومن أجل ما وقع له من الموشحات قوله :

عبث الشوق بقلبي فاشتكي ألم الوجد ، فلبت ادعني

أيها الناس فؤادي شغف

وهو من بني الهوى لا يُنصف

كم اداريه ودمعي يكرف

أيها الشادن من علائكما بسهام اللحظ قتل السبع

بدر تم تحت ليل اغطش

طالع في غصن بانٍ منتشي

اهيف القدر بجحد ارقش

ساحر الطرف وكم قد فتكا بقلوب درعت بالاضلع

واثني يهز من سكر الصربا

اي رُم رمته فاجتنباً

كفضيب هزته ريح الصبا

قلت هب لي يا حبيبي وصلكا وا طرح اسباب شجري ودع .

قال خذي زهره مذ فوقاً

جرّد الطرف حساماً مرهفاً

حذراً منه بالاً يقطفاً

ان من رام حناء هلكا فازل عنك امانى الطمع

ذاب قلبي من هوى ظي غرير

وجهه في الدجن صبح مستنير

وفزادي بين كفيه اسير

لم اجد للصبر عنه مسلكا فاتصاري بانسكاب الادمع

ويُخَيَّل اليّ ان هذا الموشح هو الاصل الذي عارضه ابن زهر

في موشحه المشهور الذي يقول في مطلعته :

ايها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

ابو عمى التبطلي (النصف الاول من القرن السادس)

ابو جعفر بن هريره ، ابوبكر التُّطَيْيَلي (والتبطلي والطَّائِبُطلي)

الوشاح المشهور ، من شعراء الاندلس في دولة الملمشين (المرابطين)

اوائل القرن السادس للهجرة ، سكن مرسية ومات في مقتبل العمر

وضاع كثير من أخباره ، وبقيت شهرته ، واثار عبقريته ،
كان كثير الوقوع في الناس ، قيل له مرة : يا أبا بكر ، كم تقع في
الناس ! فقال : أنا أعمى وهم لا يبرحون حُفَرًا ، فما عذري في
وقوعي فيهم ، فقال السائل : « والله لا كنت قط حفرة لك »
وجعل يواليه بره ورفده .

قال عنه الفتح في القلائد : « له ذهن يكشف الغامض الذي
يخفى ، وجاء بالنادر الذي أعجز ، ونظم أخبار الأئمة المفترقة في
لبة القريض ، وأسممها أطرب من نغم معبد والغريض ، وكان
بالأندلس سرًا للأحسان إلا أنه اختصر حين احتُفِر ، واعتُبط
عندما استُبشِر به واعتُبط » .

وذكر ابن خلدون : ان جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس
في اشبيلية ، وكان كل واحد منهم اصطنع موشحةً وتأنق فيها ،
فتقدم الأعمى التليطي للانشاد واقتنع موشحته بقوله :

ضاحك عن 'جان' . سافر عن بدر . ضاق عنه الزمان . وحواه صدي

آه مما أجد	شفي ما أجد
قام بي وقعد	باطش متند

كما قلت قد قال لي أين قد

واثنى خوط بان . ذامه زر نصر . مابته يدان . لاصبا والقطر
فلما سمع الوشاحون قوله خرّق ابن بقي موشحته ، وتبعه الباكون .

الحكيم ابو بلر بن بامنة (القرن السادس)

صاحب التلاحين المشهورة المعروفة ، حاصر ابن بقي والأعمى
الطليطي ، وكان مقدما عند ابن تيفلاؤيت صاحب سرقسطة ،
ألقى ابو بكر ذات يوم على بعض القينات موشحته في المديح
التي اولها :

جرر الذيل ايما جرر وصل الشكر منك بالشكر

وختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير الملا ابي بكر

فطرب ابن تيفلاؤيت وصاح : واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال

ما أحسن ما بدأت به وما ختمت ! وحلف بالايمان المفاضة الا

يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء

العاقبة ، فاحتال بان جعل في نعله ذهباً ومشى عليه .

ابو بكر بن زهر

(٥٠٧ - ٥٩٥) هـ (١١١٣ - ١١٩٩) م

ابو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر
ابن أبي مروان ... بن زهر الايادي الاندلسي الاشبيلي .

كان من أهل بيت كلهم علماء رؤساء ، وحكماء وزراء ،
متقدمون عند الملوك ، وكان ابو بكر متمكناً من شعر العرب ،
عالي المرتبة ، كثير الأموال ، مشرفاً على جميع أقوال أهل
الطب ، وله في كتاب جالينوس (حيلة البر) :

(حيلة البر) صنفت لعليل	يترجى الحياة او لعليلة
فاذا جاءت المنية قالت	حيلة البر : ليس في البر حيلة

وكان يعالج الناس في الطب ، وأوصى ان يكتب
على قبره :

تأمل بحقك يا واقفاً	ولاحظ مكانا دفننا اليه
تراب الضريح على وجنتي	كأنني لم امش يوما عليه
ادأوي الانام حذار المنون	وها انا قد صرت رهنا لديه

وانفرد بالتقدم في الموشحات ، في زمانه ، وقد شرقت موشحاته
وغربت ، وكان جده ابو العلاء زهر وزير الدهر وفيلسوف العصر
وحكيمه ، وتوفي سنة ٥٢٥ بقرطبة .

وكان عبد الملك قد ارتحل الى الشرق وطبيب زماناً طويلاً ،
وتولى رئاسة الطب في بغداد ، ثم في مصر ، ثم في القيروان
وبذلّ اهل زمانه .

وكان جد جده محمد بن مروان عالماً حافظاً للادب فقيهاً
متفتناً جواداً .

قيل لابن بكر : لو قيل لك : ما أبدع ما وقع لك في
التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما العولمة	من سكره لا يفيق	ياله سكران
من غير خمر	ما للكئيب المشوق	يندب الاوطان
هل تستعاد	أيامنا باخليج	ولياينا
او يستفاد	من النسم الأريج	مسك دارنا
وادر يكاد	حسن المكان البهيج	ان يحينا
نهر اطلد	دوح عليه انيق	مورق فينان
والماء يجري	وعائم وغريق	من جنى الريحان

ابن مناة الملك

(٥٥٠ - ٦٠٨) هـ (١١٥٥ - ١٢١١) م

هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر بن مناة الملك ،
السعدي ؛ أبو القاسم ، ويعرف بالقاضي السعيد ، شاعر ذو ثقافة
عالية أحلته منصب القضاء كآبيه ، مصري المولد والوفاة .
كان نبيلاً وافر الفضل ، بارعاً في علوم اللغة والدين ، رحب
النادي ، جيد الشعر ، بديع الانشاء متفناً فيه ، مكثراً للتأنق
في الكتابة ، كتب في ديوان الانشاء بمصر مدة ، على سعة
في العيش ووفرة من الغنى .

وكان ولوعاً بالموشح ، فاستقصى أخباره وأسس ، وجمع
طائفة من أحسن ماعرف منه في كتابه (دار الطراز) وأودعه
موشحاته التي نظمها هو نفسه .

وكانت له صلات أدبية وثيقة بالقاضي الفاضل صاحب
الطريقة المؤنقة في الكتابة ، وبغيره من أدباء العصر وشعرائه ،
يطارحهم الشعر ويواصلهم بالأدب .

وكان معجباً بصلاح الدين الايوبى، مدحه مديح اكبار واحترام.
له كتاب (فصوص الفصول) (مخطوط) جمع فيه طائفة
من إنشاء كتاب عصره، ولا سيما القاضي الفاضل، وكتاب
آخر اسمه (روح الحيوان) (مخطوط) اختصر فيه كتاب
الحيوان للجاحظ.

استفاضت شهرته في الشرق والغرب، وبخاصة في موشحه
الذي يقول فيه :

(١) يا حبيبي ارفع حجاب النور^{*} عن العذار^{*}
تنظر المسك الى الكافور في جلدنار

ابراهيم بن سهل

(٦٠٥ - ٦٤٩) هـ (١٢٠٨ - ١٢٥١) م

من أهل اشبيلية، شاعر غزل، كان يهودياً فأسلم وتلقى
الادب وأجاد في الشعر، سكن سبته Ceuta في المغرب الاقصى،
وغرق مع واليها اذ كانا في زورق انقلب بهما فهلكا.

(١) ورد المطلع بدون اداة نداء في بعض المصادر (حبيبي ارفع.)،
ووجود الاداة يناسب وزن البيت الثاني (تنظر...) ولذلك اثبتناها
كما اثبتنا بعضهم.

له ديوان شعر صغير . ومن أشهر شعره موشحه الذي عارضه الكثير من الشعراء ويبدو به بقوله :

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى	قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق منلها	لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا اشرقت يوم النوى	غرر رأ تملك بي نهج الغرر
ما لنفسي في الهوى ذنب سوى	منكم الحسن ومن عيني النظر
اجتني اللذات مكلوم الجوى	والتذاذي من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وجدي بسما	كلربا بالعارض المنبجس
اذ يقيم الفطر فيه ما تما	وهي من بهجتها في عرس
أيها السائل عن جرمي لديه	لي جزاء الذنب وهو المذنب
اخذت شمس الضحى من وجنتيه	مشرقا للشمس فيه مغرب
ذهب الدمع باشواقى اليه	وله خد بالخطي مذهب

لسان الدين بن الخطيب

(٧١٣ - ٧٧٦ هـ) (١٣١٣ - ١٣٧٤ م)

محمد بن عبدالله بن سعيد اللوشي الأصل ، وزير مؤرخ ، وأديب نبيل ؛ ولد بقرناطة ، واستوزره سلطانها ابو الحجاج يوسف سنة ٧٣٣ ثم ابنه السلطان محمد من بعده ؛ نسبه بعض حاسديه

الى مذهب الفلاسفة ورمي بالزندقة ، وأوغر عليه قلب السلطان
محمد بن يوسف فاعنقه بغاس ، فطرقوا عليه السجن ليلا وخنقوه
كان يلقب بذي العُمرين لكثرة أرقه واشتغاله بالتصنيف
في ليله ، وبتدبير المملكة في نهاره . وهو كثير المؤلفات ، وتقع
في نحو ستين كتاباً منها الاحاطة في تاريخ غرناطة ، والاعلام ،
فيمعن بويغ قبل الاحتملام ، من ملوك الاسلام .

وله شعر جيد ، ومنه موشحه الذي عارض فيه موشع
ابن سهل فقال في مستهله :

جارك الغيث اذا الغيث همى	يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلا حلهما	في الكرى او خلسة المحتلس

اذ يقود الدهر اشبات المنى	تنقل الخطو على ما يرسم
زمرأ بين قرادي وثنى	مثلها يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلال الروض سى	فتغور الزهر منه تبسم

وروى النهمان عن ماء السما	كيف يروي مالك عن أنس
فكساء الحسن ثوباً معلما	يزدهي منه باهى ملبس

في ليلٍ كنتُ سرّ الهوى بالدجى لولا نخوس الغرور
مال نجم الكائن فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه عيب سوى انه مر كلمح البصر

ابن زمرك

(٧٣٣ - ٧٩١) هـ (١٣٣٣ - ١٣٨٩) م

أبو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي ، ولد في غرناطة ونشأ بها ، وهو من مفاخرها ، واسع المعرفة غزير المادة حاد الذكاء ظاهر الذيل ، جيد الكتابة والشعر ، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة ، أحله السلطان ابن الأحمر محلاً رفيعاً وخصّه بكتابة مره بعد لسان الدين بن الخطيب ، وقد أثنى عليه هذا في «الاحاطة» .

مات ابن زمرك قتيلاً بعد سنة تسعين وسبعمائة وهو كثير الموشحات من ذلك قوله :

نواسم البستان تنثر ملك الزهر
والظل في الأغصان ينظمه بالجواهر

وراية الاصباح	اضاء منها المشرق
تنشرها الارواح	فلا تزال تحفق
والزهر زهر فاح	لها عيون ترمق
فايقظ الندمان	تبصر ما لم يبصر
جواهر الشهبان	قد عرضت للمشتري

وينتهي موشحه بمخاطبة ممدوحه ويقول :

خذها بلا دعوى	نزعى على الروض الوسيم
جاءت كما تهوى	ارق من لندن النسيم
قد طارحت شكوى	من قال في الليل البهيم :
« ليل الهوى يقظان »	والحبيب ترب السهر
« والصبر لي خوان »	والنوم من عيني بري

وهذا القفل الاخير (ليل الهوى يقظان) هو مطلع موشح

لابن سهل ، استعاره ابن زمرك فجعله (خرجة) لموشحته اوردها
بعد كلمة (قال) ، وفق ما جرت به العادة في خرجات الموشحات .

حول الموشحات

للباحثين في الموشحات آراء هي صفوة ما يذهبون اليه من حكم وتقدير ، لذلك كان من الخير أن نستعرض شيئاً من هذه الأحكام ، غير متناسين ما يمكن أن يكون فيها من اختلاف ، مردّه الى الزاوية التي ينظر منها القائل ، والاتجاه الذي يأخذ به نفسه ، فربّ معجب يصدر حكمه عن قلبه ، وناقذ يزن الأمور بميزان الواقع ، فيختلفان أفقاً ونظراً ؛ على أن كل اختلاف في هذا السبيل ، شهي مرغوب فيه ، ما أمتع البصر بافق جديد ، وأمد الفكر برأي قويم .

فمن ذلك ما تحدث به المرحوم الاستاذ محمد كرد علي في كتابه « الاسلام والحضارة العربية » (١ / ٢٣٠) عن الشعر العربي والفنون الجميلة في الاندلس ، فذكر ان العرب « لما انتقلوا الى الاندلس جاء شعرهم خلافاً بعمانيه ونصويره وتأثيره » وان « للاندلسيين فضل

السبق في اختراع الموشحات التي تهيج النفوس الخاملة ، وتشرّبها
القلوب اسلاستها ، كأن سماء الاندلس أوحّت الى قرائنهم بما لم توحه
سماء الشرق ، وتجارى غواة القريض في نظم هذه الموشحات
وترديدها الى الغاية ، واستظرفها الناس جملة لسهولة تناولها وقرب
طريقتها . وقد كثرت اختراعاتهم في المعاني ، والبسوا الشعر
ديباجة مستملحة كسرت قليلاً من قيوده ، وألبسته حلة مدنية
كالجمال العراقية والشامية أيام رواج الشعر في بعض ادوارها الراقية «
ونقل عن شاعر الاسبان فرنسيسكو فيلا ميباسا انه « لم تنهياً
للشعر العربي في عامة الاقطار التي اكتسحتها للعرب تربة اصالح
من تربة الاندلس ، ولا زها في بلد من البلدان زهوته في
هذا البلد » .

وقال « ان روح الفروسية التي سادت القرون الوسطى ،
وأحالت همجية الحروب الى مداعبات على ظهور الخيل في ميادين
الالعب ، وانجبت من الحب أدباً عالياً ، ومن المرأة صنماً

معبوداً لهي روح خلقها الشعر العربي وحملها الى العالم على اجنحة
موشحاته ، فعم العالم « الأدب المنمَّق » الذي سبق الرومانطيقية
ببضعة أجيال ؛ ومنه كان للشعر العربي هذا التأثير في العالم ،
فأحر به أن يكون في اسبانيا أشد بلوغاً منه في غيرها .

ثم يقول : « وليست جميع القصائد المجموعة في كتب الاغاني
الاسبانية لمختلف الشعراء سوى انحلال ما في الدواوين الشرقية
من شعر ، فانك ترى ناظميها يرافقون في أناشيدهم الايقاع
المتكرر في الحان الرباب ... وينتهي الى ان التأثير بالأدب العربي
البادي في آداب اللغة الاسبانية ظاهر في أناشيدهم الشعبية التي
تمثل نفس أمته الشاعرة » ...

ويتحدث الاستاذ كرد علي عن النهضة الموسيقية الجبارة التي
كانت في الاندلس ويذكر « انه كان لهم آلات من الطرب والوان
من الملاهي كادوا يتفردون بها ... ودام الغناء واللهو والاونار
والرقص في الاندلس الى عهد خروج العرب منها ، على حصة
موفورة ، فكان من الطبيعي أن يأخذ الافرنج عنهم ، ولا يزال الى

اليوم غناء الاسبانيين يشبه غناء العرب ، وموسيقاهم كأنها
موسيقاهم ، وكذلك رقصهم و كثير من أدوات لهوهم ، وهكذا
الحال في اسبانيا والبرتغال اليوم بل في جمهوريات امريكا الجنوبية
ولاسيما أهل الارجنتين والبرازيل بفضل زرياب الذي رحل
الى المشرق وعنه أخذ الاندلسيون وجيرانهم ... » (٢٣٧)

ويشير الاستاذ كرد علي في (خطط الشام) الى زرياب . ولى
المهدي ، والى مقدمه على خلفاء بني أمية في الاندلس ، وانه كان
يركب في مائة غلام ؛ ويذكر عن آلة الطرب (الأثرغن) التي
تقدمت الاشارة اليها في هذا الكتاب ، انها غير الارغن الذي
يعرفه الافرنج لعمدنا ، ونقل عن الخوارزمي : « ان الارغانون آلة
لليونانيين والروم ، تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس ،
يضم بعضها الى بعض ، ويركّب على رأس الزق الاوسط زق
كبير ، ثم يركب على هذا الزق انابيب صفر لها قصب على
نسب معلومة ، يخرج منها أصوات طبيعية مطربة مشجية على
ما يريد المستعمل » (١٠٦/٤ - ١٠٧)

وبذكر الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) (٢٧١ - ٢٧٥) : « ان الاندلسيين لم يستطيعوا ان يحدثوا مذهباً فنياً جديداً في الشعر العربي ، بل جمدوا عند التقليد والصوغ على نماذج الشرق من غير تعمق ، ويقرر ان صنيعهم اقتصر على الشكل ، وان الغناء والموشحات والازجال هي الشيء الطريف في شعرهم ، ويرى ان فن التوشيح لا يعتد به كمذهب جديد في الشعر العربي ، وانما هو شيء يتجاوب والبيئة وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم ، فأدبهم في الموشحات وغيرها لم يحدث ثورة على الأوضاع القديمة في الصياغة الفنية ، لا في صياغة التفكير ولا في صياغة الشعور ، لأن الاندلس او شعراءها على الأقل ، لم تعرف التفكير العميق الدقيق ؛ وينتهي الى أن الموشحات والازجال استمدت دلالاتها وصياغاتها من معين المشرق ومذاهبه الفنية . »

وفي رأي أحد المؤلفين القدامى (في وفيات الأعيان) :

« ان الموشحات زبدة الشعر ونخبته ، وخلاصة جواهره وصفوته ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على

أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق .
ويرى الأستاذ خليل الهنداري (في نصوصه المدروسة) :
« ان الموشحات لم تخلق لتغذية الذهن وارضاء التفكير ، وانما
خلقت لاثارة الخيال والعاطفة ، وإيهاج النفس والاذن والعين ،
وهي جدرة بان تحمل معها طابع الأدب الاندلسي
والبيئة الأندلسية » .

ويورد الأستاذ نعيم الحمصي (في رائده) عن أحد المستشرقين :
« ان الموشحات الاندلسية تنفح العالم العربي بعطر شذي من تلك
الأرض الاندلسية التي لبثت زمناً طويلاً محافظة على الروح الشامية »
ويورد قول غيره : « ان أسلوب الموشحات هو ابن ليالي
الهوى وابن الكؤوس وابن الطبيعة وابن الموسيقى ، ولولا نزوعه
الى التكلف البغيض ، ولولا معاطاة غير الشعراء له ، لكان جديراً
به ان يكون المثل الأعلى للشعر الصحيح » .

ويقول ابن بسام في (ذخيره) : « وهي (اي الموشحات) أوزان
أكثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل أو النسيب ، تُشَقُّ

على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب »
ويذهب المستشرق الافرنسي ديغونين الى « ان الشعر العربي
في اسبانيا وجد تربة صالحة جداً للازدهار ، واكتسب فيها
عفوية فياضة ، وتذوقاً للطبيعة والحياة » .

وذكر يوسف أشباخ المؤرخ الألماني في (تاريخ الاندلس
في عهد المرابطين والموحدين) : « ان المرابطين كانوا يطاردون
العلماء الذين يخرفون عن معتقداتهم .. ويعملون على تحطيم
الروح الشعرية الاندلسية التي كانت تجد متعتها في قريض
الفروسية والقصص المفرق ... ولم تطل سيادتهم أكثر من
نصف قرن ، كما ان اواخر ملوكهم قد غمروا بسحر التمدن
دون أن يشعروا ، فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة العربيتين ،
ومالوا الى مصادقة الشعراء والعلماء ولا سيما اوائك الذين شادوا
في نظمهم ونثرهم بمدح حكومتهم وغزواتهم .. وقد أفادت
سيادة المرابطين روح الشعب الاندلسي خات مكان الفروسية
الهائلة ، والملاهي الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوي :

روحٌ حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطري ، ورجولة
متينة .

ولم يبدِ الموحدون من الغلو في مطاردة الثقافة مثلما أبداه
أسلافهم .. وقد شجعوا كثيراً من العلوم ، وغمرت الشعب موجة
من الرخاء ، وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلي في الشعوب «
(٢٥١/٢) .



الخاتمة

وبعدُ فقد بسطت دونك صفحة من الأدب والعلم ، توخيت فيها التقريب والفائدة ، ووضعت خلفها فكرة شعرت بها كما شعرتُ ، وعرفت كما عرفت ، وهي ان هذا الضرب من الأدب صورة عن ماضٍ حبيب ، ومرآة لزمنٍ معسول ، كان أيام انسام الرقعة ، وامتداد الملك ، واثلاق الحضارة .

كان أيام حيرة الاقوام الباقية ، وضلة الافهام التائهة ، وحلكة الاوطان المتعادية .

ولكن الدهر دول ، فما ضرب من ضرب به ، حتى ضاع المجد من أيدي أصحابه ، واستبدل أهل الحيرة بحالهم خيراً ، فاذا نحن في الضلة والحيرة ، وادام في اليقظة والبناء .

ذلك اننا استبدلنا بالجدهو ، وتبدلوا باللهو جدا ؛ واتنابتنا أميل الى الطرب والمذاة ، واصبحوا أمبق الى التعب والانتاج ؛ وكذلك تتغير الاحوال بتغير الاخلاق ، وتضيع الممالك بامتهان القيم ، وتزول الابجاد في الانغماس بالاهواء .

فليكن اذن عملنا في سبيل الحق واليقظة والصدق ، ولننتفع
بالدروس التي سطرها لنا التاريخ ، وليد كيرة البحث الذي كنا
فيه ، بما كان لنا في غابر الدهر ، وكيف غاض بين سمع الارض
وبصرها ، عسى ان نعتبر في سبيل البناء الجديد .

وبعد ، فربما وقع في الطبع او الصنع بعض ما يمكن أن يقع ،
وهو مما لا يبرأ منه الجهد ، ولا يعزى منه الخلق ، ولا
يخفى على الاريب .